

مجلة المُدَوَّنَة

مجلة فقهية فصلية محكمة تصدر عن مجمع الفقه الإسلامي بالهند

العدد 1: رجب- رمضان 1435هـ/أيار- تموز 2014

ملف العدد

جهود علماء المغرب في خدمة العلوم الشرعية





مجلة المُدَوَّنة

مجلة فقهية فصلية محكمة تصدر عن مجمع الفقه الإسلامي بالهند

العدد١، رجب- رمضان ١٤٣٥هـ/أيار- تموز ٢٠١٤م

مجمع الفقه الإسلامي بالهند مسجل تحت رقم: ٤٦٩٥/٤/٧٠١٧/٩٠

العنوان:

مجمع الفقه الإسلامي، ١٦١ ايف، جوغابائي، ص.ب. ٩٧٤٦ جامعة نغر، نيودلهي ـ ١١٠٠٢٥، الهند.

هاتف:

٢٦٩٨١٧٧٩، ٢٦٩٨٢٥٣-١١-٩١

الموقع:

www.ifa-india.org

البريد الالكتروني للمجمع:

fiqhacademy@gmail.com

البريد الالكتروني للمجلة:

magalmodawana@gmail.com

ضوابط النشر :

– أن يستوفي البحث الشروط العلمية والموضوعية، وأن يتسم بسلامة المنهج.

– أن يتم العزو إلى صفحات المصادر في الحاشية لا في درج الكلام.

– أن يقدم اسم الكتاب على اسم مؤلفه إن في الحواشي أو ثَبتِ المصادر والمراجع.

– أن يلتزم بالتوثيق الكامل للمصادر والمراجع في آخر البحث.

– يلزمُ في تحقيق المخطوطات الإخلاص لمنهج تحقيق النصوص وتوثيقها، وإرفاق البحث بصور من النسخ الخطية المعتمدة.

– أن لا يتجاوز البحث ٢٠ صفحة، وألا يقل عن ١٠ صفحات.

– يُرسل البحث، مطبوعا مصححا، إلى إدارة المجلة في نسختين إلكترونيتين، إحداهما على (Word) وأخرى (Pdf).

– يلزم كتابة البحوث بخط (Traditional arabic) قياس ١٨ للعناوين، و١٦ للمتن، و١٤ للحواشي.

– أن يقدم الباحث بين يدي بحثه، توصيفا قاصدا لمضامينه في نحو مائة وخمسين كلمة.

– أن يرفق البحث بنبذة وجيزة عن سيرة الباحث العلمية ودرجته وعنوانه وصورة حديثة له.

– أن يجري الباحث عند إرجاع البحث إليه، تعديلات المحكمين المقترحة.

ملاحظات:

– تخضع جميع البحوث للتحكيم العلمي من قِبل لجنة علمية أكاديمية متخصصة.

– لا يلتفت إلى أي بحث لم يستوفِ الشروط المطلوبة.

ترسل جميع المراسلات والاستفسارات إلى البريد الإلكتروني للمجلة:

magalmodawana@gmail.com

محتويات العدد:

الافتتاحية:

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فيسر مجمع الفقه الإسلامي بالهند أن يقدم للقراء الكرام عامة، وللمتابعين لأعماله وفعالياته خاصة، العدد الأول من مجلته الفقهية الشرعية المحكمة الموسومة بـ"**مجلة المدونة**" تيمنا بالموسوعة الفقهية النفيسة -"المدونة"- للإمام الفقيه المالكي سحنون –رحمه الله-، وقد ارتأى المجمع أن يخصص هذا العدد الفاتح لجهود أهل المغرب في خدمة العلوم الشرعية؛ لتميز مصنفاتهم وغزارة آثارهم، وتجديدهم واجتهادهم في الكثير من القضايا الشرعية.

نسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بهذا العدد الأمة، ويجعل هذه المجلة لبنة في صرح تحقيق الشهود الحضاري آمين و الحمد لله رب العالمين.

المشرف العام

جوانب من الحركة العلمية بجامع القرويين

الدكتور جمال بامي
الرابطة المحمدية للعلماء/المغرب

ارتأيت في هذا المقالة أن أتناول بعض جوانب الحركة العلمية بالمغرب من زاوية العلائق بين العلماء، وعلاقة ذلك بازدهار العلم والعمران. وقد رأيت أن أخص جامع القرويين المبارك بهذه المقالة نظرا للقيمة المفصلية التي يحظى بها هذا المسجد في تاريخنا وكياننا.

الحديث عن الحركة العلمية بجامعة القرويين حديث ذو شجون، ذلك أن النبوغ والإبداع ما انقطع يوما في رحاب هذا الجامع المبارك.. ومعلوم أن الإشعاع العلمي للقرويين امتد منذ العصر الإدريسي إلى العصر الحاضر.. وقد انتشرت في أرجاء القرويين كراسي العلم، وخصصت لها أوقاف، واعتبر كرسي العلم في جامعة القرويين مؤسسة ذات نفوذ معرفي كبير، يقول الكتاني في (فاس عاصمة الأدارسة): ‘‘ذكر مترجمو محمد بن إدريس العراقي –إمام النحاة في عصره– عنه أنه ولي تدريس كرسي سيبويه بالقرويين.. وقالوا عن عبد الواحد الونشريسي أنه جمع بين خطط الولايات الثلاثة: الفتيا بفاس، والقضاء بها، والتدريس بالقرويين.. وعن فاس أخذت الدنيا بعد ذلك نظام كراسي العلم والأستاذ الجامعي الكبير‘‘. واضطلع الإمام المنجور بمهام جسام على مستوى العلم والأخلاق، وتفرغ للتدريس بالقرويين وملحقاتها كالعطارين والمصباحية ومساجد فاس الأخرى التي تتحرك وفق الخطة المرسومة من القرويين.

وقد كانت دروس القرويين يحظرها الطلاب، والحرفيون وأرباب المهن، وعقدت بها المحاضرات يحضرها الرجال والنساء، والولاة والقضاة والموسيقيين.. وترسخ المذهب المالكي في أحضان القرويين بدأ بالعمل المؤسس الذي قام به سيدي دراس يوم كان ابن أبي زيد القيرواني يزوره بفاس لتلقي العلم فتأمّل.. وقد تبلور المذهب المالكي عبر ما كتبه أعلامه الكبار الذين احتفظوا بالأعراف والعوائد المكونة لشخصية المجتمع المغربي في كتب النوازل والفتاوى والفهارس والكنانيش التي تعتبر بحق وثائق سوسيولوجية شاهدة على العصر، ولم يقتصر الإشعاع العلمي للقرويين على الرجال، بل نبغت عالمات وأديبات وفقيهات وقارئات ومحدثات، وعالمات بالطبيعة.. ويذكر الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في كتابه "معطيات

الحضارة المغربية"، ج: ٢-(١٩٦٣) ثلة من العالمات اللواتي نبغن بفاس كأم الحسن بنت سليمان بن أصبغ المكناسي تلميذة بقي بن مخلد، وأم عمرو بنت أبي مروان بن زهر طبيبة دار المنصور، ولها بنت هي ابنة أبي العلاء كانت عالمة بصناعة الطب والولادة، وورقاء بنت ينتان الفاسية الأديبة الشاعرة، توفيت بفاس عام (٥٤٠هـ) كما في جذوة الاقتباس لابن القاضي. وأم العلاء العبدرية نزيلة فاس، كانت قبل ذلك عالمة بغرناطة، وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي السبتي، أجاز لها ابن رُشيد السبتي عام وفاته سنة (٧٢١هـ) كما في أزهار الرياض للمقري..

وكان من علماء المغرب في هذه الحقبة أبو عمران الفاسي المتوفى سنة (٤٣٠هـ)، ومن أعلامها أيضاً عبد اللّٰه بن محمد بن إبراهيم الأصيلي نسبة إلى أصيلا، مالكي المذهب، له كتاب في اختلاف الأئمة (مالك والشافعي وأبي حنيفة) سماه "الدلائل على أمهات المسائل" توفي سنة (٣٩٢هـ) كما ذكر ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس (الجزء: الأول ص: ٢٠٨)، ونقلها ياقوت الحموي في معجم البلدان (ج: ١-ص: ٢٧٨). كما برز نجم الفقيه المالكي الكبير أبو عبد اللّٰه محمد بن محمود الهواري قاضي فاس، المعلق على المدونة، المتوفى سنة (٤٠١ هـ).

وأصبحت فاس كما وصفها عبد الواحد المراكشي في "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" حاضرة المغرب وموقع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة.. وحل من هذه وهذه من فيهما من العلماء من كل طبقة فراراً من الفتنة، فنزل أكثرهم بفاس فهي اليوم على غاية الحضارة وأهلها في غاية الكيس والظرف ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم، ومازلت أسمع المشايخ يدعونها "بغداد المغرب" وعرفت فاس في عصورها الأولى مئات المساجد والمدارس والسقايات العمومية والحمامات ودور الوضوء كما في "زهرة الآس" لأحمد المقري (المطبعة الملكية، ص: ٣٣)..

من علماء القرويين الكبار الذين عاصروا الدولة المرابطية وبداية الدولة الموحدية أبو بكر خلف المواق قاضي فاس مؤلف "كتاب المكاييل والأوزان"، توفي سنة (٥٩٩ هـ)، ومنهم أبو حسن علي الكتاني، المحدث الحافظ المتوفى سنة ٥٦٩. ومنهم أبو خرز الأورَبي، حافظ وفقيه ومدرس، توفي سنة (٥٧٢ هـ)، ومنهم ابن الرمانة محمد بن علي القلعي قاضي فاس، المتوفى سنة (٥٦٧ هـ)، ومنهم يوسف بن عبد الصمد بن يوسف بن علي، كان مؤرخاً وأصولياً يُدَرِّسُ بالقرويين سنة (٦١٣ هـ) بفاس، كما في "جذوة الاقتباس" لابن القاضي و"الذخيرة السنية" لمؤلف مجهول..

من أعلام العصر المرابطي أيضا عبد اللّٰه بن محمد بن زغبوش المكناسي، كان يأخذ العلم بفاس لما هاجمها الموحدون في أواخر العهد المرابطي، وممن رحل لفاس -آنذاك من تلمسان- حسن بن إبراهيم

بن عبد اللَّه بن أبي سهل التلمساني، المعروف بابن زكون، والمتوفى عام (٥٥٣ هـ)، وكتب بها عن عيسى بن يوسف الملجوم الفاسي المتوفى عام (٥٤٣ هـ). ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صقر الأنصاري البلنسي ثم المري، المتوفى بمراكش عام (٥٢٣ هـ)، ومنهم إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي المالقي، المتوفى عام (٦١١ هـ)، روى بفاس عن أبي الحسن بن جبير وعن العارف أبي الحسن علي بن إسماعيل بن حرزِهِم الفاسي، المتوفى عام (٥٥٩ هـ).

وأصبح جامع القرويين جامعة علمية تشد الرحلة إليه، ويدل على ذلك ما جاء في ترجمة سيدي علي ابن حرزهم الفاسي، أنه كان يقصد من البلدان للقراءة عليه. ودليل آخر على مركز فاس العلمي بالمغرب في صدر المائة الخامسة ما ذكره أحد علماء الأندلس الواردين على المغرب وهو أبو عبد اللَّه محمد بن جامع الأنصاري الجياني، المعروف بالبغدادي لطول سكناه بها، (ترجمته في "الذيل والتكملة" لابن عبد الملك) من أنه لما قفل من المشرق في حدود سنة (٥١٥ هـ) نزل أول قدومه مدينة فاس وقعد بغربي جامع القرويين منها يدرس الفقه مدة، ثم تحول إلى بلده جيان وبقي فيها إلى عام (٥٣٩ هـ)، ثم خرج من بلده وقصد مدينة فاس ونزلها عام (٥٤٤ هـ) وأقام بها يدرس الفقه وأصوله ومسائل الخلاف، ولم يزل بها مقبلاً على نشر العلم وإفادته إلى أن توفي يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة عام (٥٤٦ هـ)..

ويبدو أن التعليم خلال العصر الموحدي كان يبتدئ في سن مبكرة، لذلك كان نوابغ هذا العصر وعلماؤه من الشباب أمثال عبد الواحد المراكشي، والمزدغي، وأبي جعفر ابن عطية، وابن رشد الحفيد، وابن زهر الطبيب ، وابن غالب البلنسي، وجلّهم درسوا ودرّسوا برحاب القرويين..واشتهر في العصر الموحدي كثير من العلماء منهم محمد بن إبراهيم ابن عيسى المتوفى سنة (٥٤٦ هـ)، وأحمد بن عبد الصمد القرطبي المتوفى سنة (٥٨٢ هـ)، ويوسف بن عبد الصمد بن يوسف المتوفى سنة (٦١٣ هـ)، والمفسر المحدث ابن القصري المتوفى سنة (٦١٥ هـ)..

وأشهر علماء النحو في المغرب -خلال العصر الموحدي- عيسى بن عبد العزيز الجزولي المراكشي المتوفى سنة (٦٠٧ هـ) مؤلف المقدمة الجزولية الذائعة الصيت كما في "وفيات" ابن خلكان، وأبو القاسم المتوفى سنة (٦١٩ هـ) المترجم له في "بغية الوعاة" للسيوطي، ومن مشاهير علماء العربية أبو ذر الخشني الجياني المتوفى سنة (٦٠٤ هـ) كما في "التكملة" لابن الأبار، والذي استوطن فاسا وعلم بها..

كانت الدراسة مركزة بجامع القرويين في العصر الموحدي بدليل ما ورد في ترجمة أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الأنصاري الخزرجي القرطبي ثم الفاسي مستوطنها المتوفى سنة (٥٨٢ هـ)، قال ابن فرحون

في الديباج المذهب: ''ولما قدم مدينة فاس أُلزم إسماع الحديث والتكلم على معانيه بجامع القرويين واستمر على ذلك صابراً محتسباً ونفع اللّه به خلقاً كثيراً''، أما النص الثاني فتقرأه عن أبي الحجاج يوسف بن عبد الصمد بن يوسف الفاسي الذي جاء في أثناء ترجمته من جذوة الاقتباس: ''ثم عاد إلى بلده عام ثلاثة عشر وقعد للإقراء بعد عوده في شرقي جامع القرويين إلى أن توفي في الثاني من شهر رجب عام أربعة عشر وستمائة''.

ولست متفقا مع من قال أن المهدي بن تومرت لما قدم إلى المغرب وجده خالياً من العلم النظري ولم يقدر علماء فاس ولا علماء مراكش على مناظرته، ولم يكن فيهم من يعرف ما يقول إلا ''مالك بن وهيب الفاسي'' كما ذكر صاحب المعجب، بدليل ما ذكرناه من ازدهار الحركة العلمية بفاس ومراكش خلال عصر الأدارسة والمرابطين، سواء في العلوم النقلية أو العقلية. وستكون لنا عودة للتفصيل في هذا الموضوع في دراسة لاحقة..

في العصر المريني برز علماء كبار كانت لهم علاقة وطيدة بالقرويين، منهم ابن الخطيب وابن خلدون، ولما سقطت سبتة في يد البرتغاليين سنة (١٤١٥م)، لاذ علماؤها بالقرويين، وتعددت بها كراسي العلوم الدينية واللغوية والتطبيقية، وتعددت المدارس حيث زاد المرينيون على ما بقي منها في عهد المرابطين والموحدين، وكان لكل مدرسة أستاذان فأكثر، كما تعددت الخزائن الكتبية بها، ولذلك ازدهرت القرويين في عصر بني مرين ازدهاراً كبيراً، يقول ليفي بروفنصال حول هذه المسألة: ''أن بفضل ملوك بني مرين لم تكن عاصمة فاس في القرن الرابع عشر لتحسد العواصم الإسلامية الأخرى''.

خلال العصر المريني بنى أبو يوسف يعقوب المريني المدارس والمعاهد ورتب لها وأجرى المرتبات على العلماء، والطلبة في كل شهر، كما بنى الزوايا في المناطق المجاورة وأوقف عليها الأوقاف، وسار المرينيون على منواله فأنشأ أبو الحسن في كل بلد من بلاد المغرب مدرسة في فاس وتازة ومكناس وسبتة وطنجة وآنفا وأزمور وأسفي ومراكش والقصر الكبير وتلمسان كما جاء في (المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لابن مزوق ص ٣٥ من مجلة هيسبيرس عام ١٩٥٢)، وقد حبست أوقاف من أجل تشجيع العلوم؛ ففي ''نشر المثاني'' للعلامة القادري أن من أحباس جامع الأندلس قراءة التفسير وقراءة صحيح مسلم وكراسي العلم في التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسي والرسالة ونظم ابن زكري، وفي ''نيل الابتهاج'' لبابا التمبوكتي أن من أحباس فاس وقف على استيفاء ابن حجر على الصحيح. ودُرس التفسير بالقرويين بعدة شروح، وبالأخص الطبري وألف فيه من المغاربة أبو

الحسن الحرالي: ''مفتاح اللب المقبل على فهم القرآن''، والمزدغي المتوفى سنة (٦٥٥ هـ)، وابن فرتون السلمي (ت ٦٦٠ هـ) ومن المتأخرين الإمام الصاعقة أبو الحسن اليوسي..

أما علوم القرآن من تجويد وقراءات ورسم، فقد اهتم بها المرينيون كثيرا، وأسسوا للدراسة بفاس مدرسة السبعين أي القراءة بالروايات السبع، وهي بإزاء مدرسة الأندلسيين، وألف في هذا الفن محمود بن الحسن الفاسي المتوفى سنة (٦٥٦ هـ) شرحاً على الشاطبية.. أما الفقه فقد درسوه بعدة كتب أهمها ''النوادر'' لابن أبي زيد، وكتاب ابن يونس وتهذيب البرادعي ورسالة ابن أبي زيد القيرواني.. ودرسوا الأصول بالبرهان لإمام الحرمين و''المحلى'' فيما بعد، وفي العصور المتأخرة ألف المهدي بن سودة حاشية على المحلى. حسبما يخبرنا به الحسن السائح في كتابه ''الحركة العلمية بجامعة القرويين'' (منشورات الإسيسكو).

ودرس الأدب بالقرويين بكتاب الحماسة وبمقصورة ابن دريد، وبصفوة الأديب للجراوي وشرح ابن زاكور للحماسة في العصور المتأخرة، وقد حافظ المغاربة على قوة التعبير باللغة العربية وسلامة الأسلوب العربي، ويقول العلامة محمد بيرم التونسي في ''صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار'': إن صناعة الإنشاء في الدول باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على مراكش.

وجاء في كتاب ''التعاشيب'' للعلامة عبد الله كنون (الصفحة ٩٥): أن المغرب نبغ فيه أدباء كبار مثل الأديب الشاعر يحيى ابن زيدون ومثل ابن حبوس ومثل ابن رقية وابن الملجوم الفاسي سليل الملهب بن أبي صفرة، وله كتاب في الشعر توفى سنة (٦٩٠ هـ).

وبرز خلال العصر المريني أعلام كبار مثل العبدوسي وابن الصباغ الذي أملى في حديث أبي عمير أربعمائة فائدة، وصرف العلماء في هذا العصر همتهم إلى التلخيصات والاختصارات، وهذا عمل منهجي على درجة عالية من الأهمية، ولعل من أبرز الأعمال في هذا الإطار ما كتبه العلامة ابن آجروم في ذلك المختصر الصغير لدراسة النحو العربي، وكتابه يعتبر تجربة للتبسيط والاختصار والأخذ بمختلف المذاهب النحوية..

لعل **عناية العلماء المغاربة بالفقه فاقت العناية بأي علم آخر من العلوم الدينية**، وأصبح مختصر خليل بمثابة مدونة جديدة، وقد أدخل مختصر خليل ابن إسحاق المتوفى سنة (٧٦٧ هـ) إلى فاس الفقيه محمد الفتوح التلمساني المتوفى سنة (٨١٨ هـ) بمكناس، وكتبت عليه عشرات الشروح والحواشي والتعليقات واستنبطت منه الفتاوى والأحكام، وأصبح كتاب ''العمل الفاسي'' للإمام الزقاق الفقه الرسمي في شمال إفريقيا كلها، وأخذ القرشي نفس الطريقة عن العلامة الزّقاق..

ويشير العلامة الحسن السائح في كتابه (الحركة العلمية بجامعة القرويين، منشورات الإسيسكو) أنه وجدت "وثيقة مهمة جداً عن سير الدراسة وبرامج التعليم ومناهجه في القرويين على عهد الوطاسيين وهي (الرسالة المجازة في معرفة الإجازة) التي ألفها الصوفي المغربي الكبير أبو الحسن علي بن ميمون المولود سنة (٨٥٤ هـ) الذي درس بفاس سنة (٨٨٧ هـ)، ويذكر المؤلف أنه أقام بفاس أيام الوطاسيين ذاكراً أنه أقام بفاس بقصد الدراسة في القرويين طيلة أربعة عشرة سنة، حيث أقام في بعض مدارسها ثم خرج قاصداً الحجاز وجال في الشام واستوطن في الأخير مدينة بورصة بتركيا، وكان صوفياً سنياً واشتهر بهذه السيرة وهذا المذهب وتصدى للرد على خصومه في عصره، ثم رجع إلى الشام حيث توفي بها سنة (٩١٧ هـ) وترك مؤلفات أهمها "الرسالة المجازة" وكتاب "بيان غربة الإسلام".. ويظهر من هذه الرسالة أن العلوم الشائعة في هذا العهد بالقرويين هي الفقه المالكي والحديث والتفسير والنحو والفرائض والحساب والتوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب وباقي العلوم العقلية، وأن الدراسة كانت تعتمد على حفظ النصوص، ولا يقدرون من الطلبة والأساتذة من لا يحفظ النصوص، وكان شعارهم "من لم يحفظ النص فهو لص"، ويروي العلامة الكتاني في "سلوة الأنفاس" عن هذه الرسالة التي اقتطف شذرات منها بأن مؤلفها ابن ميمون جال في تلمسان وبجاية وتونس والحجاز ومصر فلم ير في علماء هذه المدن وأشياخها من يصل إلى درجة علماء القرويين بفاس، ويستفاد من هذه الرسالة بأن التلميذ قبل الدخول إلى القرويين كان لابد أن يكون حافظاً للقرآن والرسم والتجويد حافظاً المصنفات والمنظومات، ومنها منظومة في الفرائض والحساب ورسالة أبي زيد القيرواني.. " .

وكان الشروع في الدراسة يبتدئ من الفجر إلى ما بعد العشاء، ويذكر ابن ميمون –في شهادته– أنه كان يشرع في وقت مبكر ولا يستطيع العودة إلى المدرسة لتناول الغذاء، بل لا يتناول إلا وجبة العشاء فقط، وكان الأسلوب المتبع في درس الحديث هو النقل الغزير ودراسة رواية العلماء وأنسابهم مع ضبط المتن لغوياً ونحوياً وفقهياً، واشتهر كتاب الجزولي على الرسالة في الفقه، أما المدونة فكانت تدرس بالنقل الكثير من كلام مشايخ المدونة من أولهم إلى آخرهم، وكان التجويد بالمدخل للإمام الجرومي المصمودي والفقيه ابن مالك. وقبل وقت العصر كان الطلاب ينصرفون عادة إلى خزانة الكتب. حيث يطالعون الكتب التي يوزعها عليهم الوكيل، ويذكر المؤلف أن الخزائن بفاس لدى عهد كانت ثلاثة تشتمل على كتب كثيرة لا تكاد تحصى، أما الحساب والفرائض فكانا يعلمان يوم الخميس والجمعة، وهكذا يقضي الطلبة أيامهم الدراسية إلى أن يحصلوا على العلم الوافر ويصبحوا في عداد الأساتذة..

وكان بالقرويين كرسي خاص بالنحو، وكان من أصحاب هذا الكرسي الونشريسي قاضي فاس ومفتيها وصاحب التدريس بالقرويين المتوفى سنة (٩٥٥ هـ) (العصر السعدي)، كما كان من هؤلاء محمد بن إدريس العراقي الذي انتصب أيضاً لتدريس كتاب سيبويه على الكرسي الخاص بمن يدرس النحو (توفي سنة (١١٤٢ هـ).. ويفيدنا العلامة الحسن السائح في كتابه عن ''الحركة العلمية بجامعة القرويين'' أنه كان ''قد رحل في القرن العاشر علي بن ميمون لتلمسان وبجاية وتونس والشام والحجاز وقال مقارناً بين علماء القرويين وعلماء غيرها: ما رأيت في سائر المغرب لا في مدينة تلمسان ولا بجاية، ولا تونس ولا إقليم الشام بأسره، ولا بلاد الحجاز، فإني ''رأيت ذلك كله بالمشاهدة'' ولا بمصر على ما تقرر عندي من العلم اليقين بمشاهدة أناس من أهلها، وبرؤيتي لبعض كتب أرباب الوقت، ما رأيت مثل فاس، ومثل علمائها في حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل، وهذا الحفظ لنصوص إمامهم الإمام مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة، من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب والتوقيت، والتعديل والتوحيد والمنطق، والبيان والطب، وسائر العلوم العقلية، ثم لابد فيه عندهم من حفظ نص ذلك الفن، ومن لم يستحضر النص عن مسألة ما في علم العلوم لا يلتفت إلى كلامه، ولا يعبأ به، ولا يحسبونه من طلبة العلم'' ..

وتعتبر مصادر الثقافة خلال العصر السعدي، من زاوية أنثربولوجية وسوسيوثقافية، بالغة الأهمية في التأريخ للحركة الفكرية، منها كتب الفقه كالمعيار للونشريسي، ومعيار الوزاني، وكتب التاريخ ''كدرة الحجال'' لابن القاضي، و''مناهل الصفا'' للفشتالي، و''نزهة الحادي'' لليفرني، وكتب الرحلات كمحاضرة اليوسي، ورحلة أبي سالم العياشي، وكتب التراجم، ''كمرآة المحاسن'' لمحمد المهدي الفاسي، والدرر المرصعة، و''نشر المثاني'' للقادري، و''الدر الثمين'' للشيخ ميارة، وفهارس العلوم كالقانون لليوسي والأقنوم لعبد الرحمن الفاسي.

وخلال العصر العلوي حاول السلطان محمد بن عبد اللّه (ت ١٧٩٠م) أن يطور المناهج الدراسية، وينتقي الكتب التعليمية، وأصدر مرسوماً بذلك جاءت تفاصيله في كتاب ''مفاخر الدولة العلوية'' للمؤرخ عبد الرحمن بن زيدان وتنحصر دعوته الإصلاحية في الرجوع إلى الكتاب والسنة، وألف هذا الملك العالم كتاباً في الحديث هو ''الفتوحات الإلهية''، وكان الهدف من تكوين لجنة إصلاح البرامج التعليمية، تطوير التعليم من الحرفية والحفظ إلى تكوين المَلَكة، واختيار الكتب الصالحة، وتأليف كتب لمختلف المواد وشرح كتب أخرى، وكان هدفه إصلاح التعليم المغربي، وإخراج الأسلوب الدراسي من الجمود والحرفية إلى تربية الملكة والقدرة على التصرف في المعلومات، ويعتبر مرسومه أقدم وثيقة في

إصلاح التعليم في هذا العصر، وكانت له مجالس خاصة، وندوات للمذكرات والتأليف، وحسب ما ذكره أبو القاسم الزياني في ''الترجمانة الكبرى''، فقد كانت هذه المجالس تضم نخبة المفكرين في عصره كالعلامة أحمد الغربي دفين محروسة الرباط وابن المسير وأبو خريص وابن عمرو والمنجرة، وابن عثمان وذكر المؤرخ أكنسوس في ''الجيش العرمرم الخماسي'' أن هذه الندوات كانت يناقش فيها الحديث، والسير، والأخبار وضروب من الفنون الأدبية، ولخص المؤرخ ابن زيدان عن الفقيه التاودي ابن سودة مرسوم إصلاح القرويين في هذا العصر، مفصلاً العلوم المقترح دراستها، والكتب المنتقاة وطريقة الدراسة، وكان المولى عبد الرحمن ينظم حفلاً بحضور الأساتذة والطلاب، وكان المولى إسماعيل لاحظ جهل بعض رجال القضاء بالدين فأمر بعضهم ممن امتحنوا وظهر جهلهم كما في ''الدرر الفاخرة'' لابن زيدان. وحافظ المولى سليمان من بعده على الإصلاحات التي جاء بها والده مشجعاً حركة التأليف المغربي، ثم تابع عمله بعده المولى عبد الرحمن.

ومن أطرف ما ذكر في تاريخ جامع القرويين على عهد الدولة العلوية ما أورده العلامة محمد عبد الحي الكتاني في ''ماضي القرويين ومستقبلها''، (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦، ص: ٧٩) إذ يقول عن العلامة أبا الحسن اليوسي لما استوطن فاس بعد سقوط زاوية الدلاء ''أقبل عليه طلبة العلم مثنى وثلاث، وتزاحمت على بابه الركب، فتصدر للتدريس بجامع القرويين، ووقع له الإقبال ما لم يعهد لغيره، فتخلف عن حضور درسه جماعة من أعيان طلبتهم وغلبهم ما هو مألوف من الطبع الآدمي، فقال أبو علي:

ما أنصفت فاس ولا أعلامها	علمي ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصبوا إلي كما صبا	راعي السنين إلى الغمام الصيب

وقد أجاب عن البيتين أبو زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي:

بل أنصفت فاس ومن إنصافها	أبدا سقوط المدعي والمعجب
نفي الدجاجل عاجلا أو آجلا	عنها فهي طريدة من يثرب

والأبيات موجودة في ''نشر المثاني'' للقادري. ولما طولع والد عبد الرحمن الشيخ العلامة سيدي عبد القادر الفاسي بجواب ابنه على الإمام اليوسي قال: البادئ أظلم، وأنت أزلت عنك جلباب الوقار، وأبخست مقدارك بتصديك لمعارضة الأحداث وإصغائك لمقال من لم يساوك في علم ولا سن.. رحمة الله عليهم أجمعين..

ورغم ما قرره الباحث رينو في كتابه ''الطب القديم بالمغرب'' من أن التعليم الرسمي للطب والعلوم أندرس بجامعة القرويين أواخر القرن ١٩م؛ فإن الباحث دلفان أشار في كتابه حول ''فاس وجامعتها، (المطبوع عام ١٨٨٩) إلى اعتناء طلبة القرويين بجملة من الكتب الطبية مثل الكامل للرازي، والقانون والمنظومة لابن سينا، وزبدة الطب للجرجاني، والتذكرة للسويدي، وتذكرة الأنطاكي، وكليات ابن رشد، ومفردات ابن البيطار، وكشف الرموز لعالم النبات الجزائري عبد الرزاق ابن حمدوش، وهو كتاب نفيس اعتنى بتحقيقه وترجمته العالم الفرنسي لوكلير؛ وأهم مؤلفات بن حمدوش ''كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب'' مرتبة على الحروف وتحتوي على نحو الألف نبتة، وهو ينقل عن ابن سينا، وابن البيطار والإنطاكي، وله أيضا ''تعديل المزاج بحسب قوانين العلاج''، ودُرس بالقرويين التوقيت والتنجيم والتعديل أيضاً، وكان بفاس مرصد لمراقبة الأهلة بباب عجيسة يسمى (برج الكوكب) كانت به نوافذ على عدد الشهور حيث يراقب كل شهر من واحدة منها، كما ذكر ذلك ابن الأبار في ''القسم المفقود من التكملة''.

كما درّس في القرويين ابن البنا المراكشي –العالم الرياضي المشهور– (توفي ٧٢٣ هـ)، وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الشهير بابن البناء، وهو أشهر رياضي في عصره.. إن الوضع الاعتباري لابن البنا في تاريخ العلوم العربية الإسلامية هو وضع رائد ومتميز، فقد أسس مدرسة في علم الحساب أبقت النشاط العلمي في ميدان العلوم الرياضية، وهّاجا في الغرب الإسلامي على مدى قرون، من خلال إنجاز شروح متعددة لأعماله في علم الحساب. وبالفعل، فالعديد من العلماء ركزوا اهتمامهم على كتابه المدرسي المكثف ''تلخيص أعمال الحساب''، من ذلك ''منية الحُسّاب'' للعلامة ابن غازي المكناسي التي اشتملت على ما جاء في ''تلخيص أعمال الحساب'' لابن البنّا المراكشي، وسيقوم العلامة الكبير ابن غازي المكناسي في وقت لاحق بشرح ''مُنية الحُسّاب'' في كتاب سماه ''بُغية الطُّلاب في شرح مُنية الحُسّاب'' (نشر بمعهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب بسوريا ١٩٨٣).. ويظهر تأثير ابن البنا الكبير في أعمال العلامة ابن غازي ''العصر السعدي'' المتعلقة بعلم الحساب بما يمثل استمرارية علمية أصيلة تبرز الديناميكية الفكرية التي سادت بلادنا بكل الأبعاد العلمية والتربوية التي تنطوي عليها، تحقيقا لسيادة العلم والمعرفة في حياة الناس، وهذه مسألة لم نعد في حاجة إلى التأكيد عليها مادامت القرائن المادية في الكتب والعمران تبرز الأثر الكبير للعلم والتعليم في بناء الكيان الحضاري والثقافي لبلاد المغرب..

ودُرس الطب في رحاب القرويين بكتب ابن سينا وابن زهر والأنطاكي، واشتهرت كتب في الجغرافيا ككتاب النزهة للإدريسي والاستبصار لمؤلف مجهول فاسي الوظيفة، من رجالات أواخر القرن السادس توفي سنة (٥٨٧ هـ) وكتاب "المعجب" لعبد الواحد المراكشي المتوفى سنة (٥٨١ هـ)..

يقول الحسن السائح في كتابه "الحركة العلمية بجامعة القرويين": وفي القرن السادس الهجري ظهرت الأرقام العربية المسماة بالغباري التي لها شكلان كما يقول ابن الياسمين الفاسي، أحدهما الرقم العربي [١,٠,٢...] والثاني المسمى بالهندي المستعمل بالشرق. ولابن الياسمين كتاب "تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغبار"، وهو كتاب له أهمية علمية وتاريخية كبيرة، أما أهمية كتاب "تلقيح الأفكار" فتكمن في إشارة ابن الياسمين إلى أصل الأرقام المعروفة بالغبار ووجه تسميتها بذلك وإنها- وهذه مسألة بالغة الأهمية – لها شكلان، شكل هو هذا المستعمل بالمغرب، وشكل هو المعروف بالأرقام الهندية. ويعد ابن الياسمين من ألمع علماء العرب شهرة في الرياضيات.. وبما أن صاحبنا ابن الياسمين كان شاعرا، فقد دفعه ولعه بالجبر إلى إبداع تعريف مفهومي الجبر والمقابلة بأرجوزة قرئت عليه بأشبيلية عام (٥٨٧ هـ)، وقد اعتبرها مؤرخو الرياضيات العمل الأساسي في دراسة الجبر، ففيها خلاصة الكثير من المبادئ والقوانين والطرق التي تستعمل في الحساب وحل المسائل والمعادلات الجبرية. وعرفت مدينة فاس بالقلم الفاسي التي يعتمده علماء الفرائض في التركات. وقد اهتم المغاربة بعلم الحساب؛ لأنه كما قال ابن خلدون في المقدمة "براهين منتظمة ينشأ عنها في الغالب عقل مضيء" وكانوا يعلمونه في البداية، لهذا كانت كتبه تقريباً ابتدائية ككتاب "الحصار الصغير" الذي يحدثنا ابن خلدون أنه كان منتشراً في المغرب وتلخيص ابن البناء المراكشي، وكذلك برع المغاربة في الجبر حسب شهادة ابن خلدون، وكان من أعلام الحساب بفاس أبو الحسن علي بن فرحون الذي كان يعلّم هذا الفن بفاس والمتوفى سنة (٦٠١ هـ)، وهو مؤلف "اللباب في مسائل الحساب" وأبو عبد اللّه محمد العابد الأنصاري الفاسي المتوفى سنة (٦٦٢ هـ) كما في "جذوة الاقتباس" لابن القاضي، وابن القطان المتوفى سنة (٦٢٨هـ)، ثم القلصادي بشروحه فيما بعد. ومن علماء الرياضيات في المغرب يوسف بن سمعون، وزميله محمد بن أفلح الأندلسي وهو من سكان فاس، واشتهر بالهندسة في فاس أبو عمران بن شامة المشار إليه في "روض القرطاس" والمهندس حسان القضاعي المتوفى سنة (٥٩٨ هـ) المنسوب إليه –في الغالب- جامع حسان والمدفون برباط الفتح، والمهندس الأحوص صانع مقصورة المنصور الموحدي؛ واشتهر من الفلكيين الشريف الإدريسي السبتي الذي أثر علمه في علماء القرويين على امتداد قرون، وأبو علي الحسن المراكشي المتوفى سنة (٦٦٠ هـ) المنسوب إليه وضع اللوغاريتم، ومن مؤلفات المتأخرين في هذه العلوم "روضة الأزهار" للقادري المتوفى

سنة (٨١٨ هـ)، ورجز عبد الرحمن الفاسي في الإسطرلاب وأرجوزة ابن زاكور، وألف الوزير الغساني "حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار"، كان حياً سنة (٩٩٤) وتوفي عام (١٠١٩ هـ). كما في مبادئ شرح التحفة، وعلق الفقيه أدراق على نزهة الشيخ داود؛ ومنهم العالم الرياضي ابن أبي الربيع اللجائي المتوفى سنة (٧٢١ هـ)، وأبو القاسم الغول مؤلف حافظ المزاج المتوفى سنة (١٠٥٩ هـ)، وابن حميدة المطرفي صاحب "المقرب في الهيئة" المتوفى سنة (١٠٦١ هـ)، والروداني المشهور المتوفى سنة (١٠٩٥ هـ). وبرز اسم البطروجي معاصر أبي الحسن المراكشي، وكان أبو الحسن راصداً بصيراً جاب في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي جنوب إسبانيا وقسماً كبيراً من إفريقيا الشمالية فأبان ارتفاع القطب في إحدى وأربعين مدينة واقعة بين إفران بالمغرب وعاصمة مصر، أي ما تعادل مساحته تسعمائة من الشرق إلى الغرب، أما البطروجي، فرصد في ذلك الحين ميل سمت الشمس وقرأ البطروجي كتاب "بطليموس" فثار على التعقيد الذي في نظرية دوران المدار البعيد عن المركز والدائرة التي وسطها على محيط دائرة أكبر منها حول مركز صفرة متحركة بذاتها، فعرض طريقة جديدة سدل عليها ستار من النسيان العميق تنطوي على ميل إلى التحرر من نظريات الأقدمين المختلفة، هذا ملخص ما جاء في كتاب "الحركة العلمية بجامعة القرويين" للحسن السائح..

وكان الطب المغربي برحاب القرويين يعتمد زيادة على الدراسة العربية في الطب على الدراسة الإفريقية الطبية، كما كان أغلب الأطباء يتقنون اللغة اللاتينية كأبي عبد اللّٰه الصقلي الذي كان يتكلم الإغريقية وغيره، وتوصلوا إلى معرفة معظم الأدوية المفردة، وقد نبغ أطباء مغاربة أثروا في المشرق ودبروا المستشفيات كما جاء في نفح الطيب للمقري (ج: ١ ص: ٢٤٤)، كما عرفوا أوربا بأسرار الطب..

وكان علم الطب مشاعاً بين طبقة من الفقهاء والمحدثين والأدباء، وذكر أحمد بابا التمبوكتي في "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" أن الإمام السنوسي شارح البخاري له شرح على رجز ابن سينا في الطب، وله شرح كبير على الكوفية في الفرائض والحساب.. وفي أواخر العصر المريني نبغ بالقرويين علماء كبار في علوم الطبيعة والحياة منهم أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن العربي الفاسي المعروف بالعارف توفي سنة (١٥٢٥م)، وهو صاحب كتاب "رسالة في تفسير الأعشاب والعقاقير الشائعة".

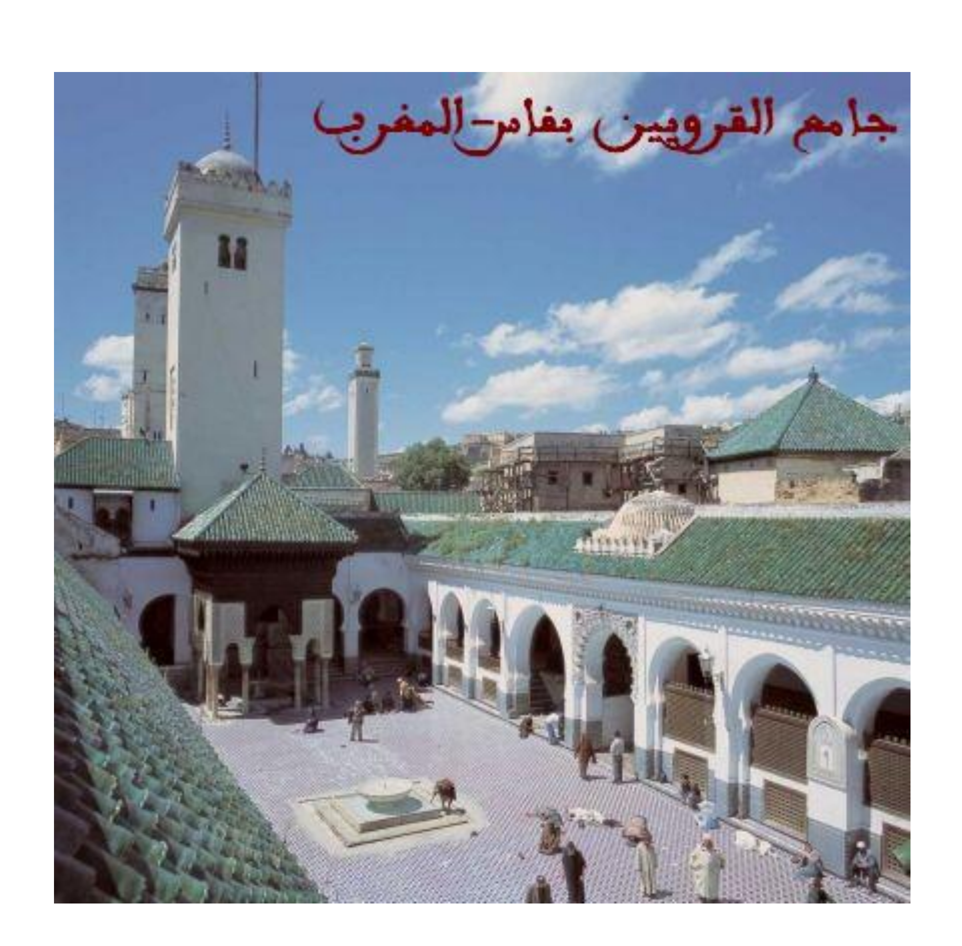
وخلال العصر السعدي، الذي عرف اهتماما بالغا بخزانة القرويين على عهد أحمد المنصور الذهبي، فقد نبغ أساتذة كبار في العلوم التطبيقية من أشهرهم العلامة ابن غازي الذي علا نجمه في الحساب والفلك بالإضافة إلى شهرته في العلوم الدينية واللغوية، فقد ألف ابن غازي في الحساب "بغية الطلاب في شرح منية الحساب"، ونذكر من علماء هذا العصر العالم النباتي الوزير الغساني صاحب "حديقة

الأزهار في ماهية العشب والعقار''، وكان الوزير الغساني طبيب البلاط السعدي إبان حكم السلطان أحمد المنصور الذهبي، الذي يبدو أنه شجع نشر هذا الكتاب في إطار مشروع ''إصلاحي'' لقطاع الطب والصيدلة بالمغرب فيما يمكن اعتباره تنظيما وتقعيدا لقطاع عرف ضعفا كبيرا في مراحل الاضطراب السياسي التي عرفها المغرب في أواخر الحكم المريني وخلال العصر الوطاسي، هذا من جهة. من جهة يتميز كتاب الوزير الغساني بالدقة العلمية التي تسود معظم أجزائه، والغساني كأبي الخير الاشبيلي اعتمد أسلوبا علميا في تعريفه بمختلف النباتات، وهو أمر يعبر عن الخبرة التي اكتسبها من خلال رحلاته الاستكشافية المتعددة التي قام بها في الميدان..

خلال العصر العلوي بدأت –خصوصا منذ عصر المولى عبد الرحمن بن هشام– حركة التعليم والدعوة للدراسة العلمية، ودراسة العلوم والرياضيات والفيزياء، فقد شعر المغرب بأن تطور أوربا الصناعية تواكبه نهضة علمية يحسن به أن يقتبس منها، وألزم المولى عبد الرحمن بعض علماء عصره بإقراء علوم التنجيم التي كادت معالمها أن تدرس، كما ألزم بدراسة الرياضيات والفلك وأنشأ مدرسة المهندسين بفاس سنة (١٨٤٤)، واختار من مكناس طلبة من خلف جيش البخاري ليتعلموا الحساب، ووجه جيش البخاري لدراسة الهندسة. وكان السلطان محمد الرابع أكثر من شجع دراسة الحساب والعلوم والهندسة والتنجيم والجغرافيا، كما جلب المجاهر والساعات الفلكية إلى المغرب، وقد ترجم محمد بن عبد الرحمان كتاب ''نيوتن'' في الفلك بمساعدة ترجمان إنجليزي مسلم، وترجم كتاب ''لالاند'' في علم الفلك، ووجه بعثة من طلاب الجيش بالصويرة لدراسة الرياضيات والهندسة بأوربا.. ووجه السلطان الحسن الأول بعثات إلى مختلف الدول الأوربية لتستفيد من التقدم العلمي المزدهر بها، وقد أنشأ مدرسة تستمر الدراسة بها خمس سنين للمواد الآتية: الحساب والهندسة والجغرافية والتنجيم واللغة الأجنبية كما يفيدنا ابن زيدان في ''إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس''. وفيما يخص إصلاح التعليم بالقرويين في مجال العلوم التطبيقية، فقد نظمت بعثات إلى خارج المغرب لمختلف الدولة الأوربية كفرنسا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا، في عهد السلطان المولى الحسن والسلطان المولى عبد العزيز، وقد تخرج من المعاهد الغربية كثير من الطلاب نذكر منهم: الجباص والأوديي، وشهبون الجغرافيان، والعلمي الطبيب، وكلهم تخرجوا من مدرسة القرويين. ومن علماء هذا العصر في العلوم الطبيعية نذكر محمد بن أحمد الحسني العلمي الفاسي المتوفى بها سنة (١٣٢٢ هـ)، وهو صاحب كتاب ''ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس'' وهو كتاب نفيس يهتم بذكر الأسماء المغربية لما ورد في تذكرة داود

الأنطاكي الضرير، إذ جعل أمام الأسماء المشرقية للنباتات أسماءها المغربية، وقد أهدى المؤلف كتابه هذا إلى السلطان مولاي الحسن اعترافا بالجميل الذي أسداه إليه بإرساله في بعثة إلى مصر[١].

وبعد فهذه لمحة مختصرة عن جوانب من ازدهار العلوم التطبيقية برحاب جامع القرويين، ومنها ندرك أن علوم الكون ما انفصلت يوما عن علوم الدين في هذا البلد الكريم، ولقد كانت القرويين بحق مجالا خصبا ورحبا لهذا الجمع المبارك بين العلم المسطور والعلم المنشور، وأملنا أن تضطلع القرويين من جديد برسالة نشر العلوم التطبيقية وتعميم نفعها بين الناس، من أجل التعمق في فهم دينهم وضمان عيش كريم في دنياهم.. جازى الله هؤلاء العلماء الفضلاء على ما أسدوه من خدمات لهذا البلد الكريم، والله الموفق للخير والمعين عليه..



[١] انظر فهرس مخطوطات مكتبة كلية الآداب بالرباط سعيد المرابطي، ٢٠١١.

جهود الحافظ أحمد بن الصديق الغماري في الفقه الإسلامي

الدكتور الأمين اقريوار
أستاذ الحديث وعلومه بكلية أصول الدين بتطوان جامعة القرويين–المغرب

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين وآله الطيبين الطاهرين وصحبه الكرام أجمعين.

وبعد، فإن علماء القرن الرابع عشر الهجري أسهموا بحظ وافر في خدمة العلوم الإسلامية عامة، والفقه الإسلامي خاصة. ويظهر ذلك جليا من خلال ما قدموه من جهود في إحياء التراث المخطوط، ونفض الغبار عنه، وإخراجه إلى حيز التداول. كما برعوا في إنتاج تآليف علمية تجيب عن أسئلة المرحلة ومقتضيات الواقع.

والزائر للمكتبات والخزائن العلمية يلحظ غزارة المادة العلمية التي أنتجها هؤلاء العلماء في جل العلوم الإسلامية، منها المطولات، ومنها المختصرات، ومنها رسائل صغيرة، وغيرها.

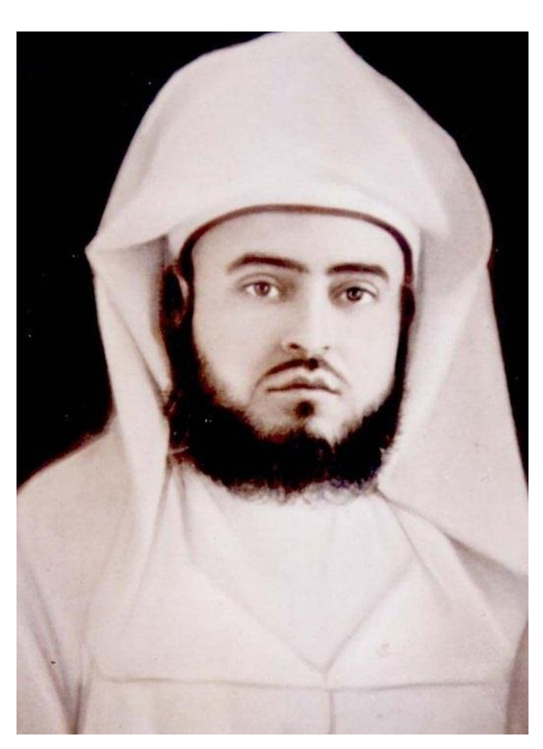
وممن برز منهم خلال هذا القرن (١٤هـ) الحافظ أحمد بن الصديق الغماري المغربي المتوفى سنة (١٣٨٠هـ)، الذي كان قلمه سيالا من حيث التأليف، حتى قيل فيه إنه سيوطي زمانه. وقد بدأ مسيرته العلمية وهو دون العشرين من عمره. ونذر نفسه لخدمة علوم الشريعة في كل أحواله وظروفه، حتى وهو في السجن ألف أكثر من كتاب مثل "سبحة العقيق"، و"البحر العميق" ، و"العتب الإعلاني" وغيرها.

فمن هو إذن الحافظ أحمد بن الصديق؟ وما هي جهوده في خدمة الفقه الإسلامي؟

للإجابة عن هذين السؤالين قسمت البحث إلى محورين، الأول في التعريف بالحافظ أحمد بن الصديق، والثاني في جهوده في خدمة الفقه الإسلامي.

المحور الأول:

التعريف بالحافظ أحمد بن الصديق



ترجع صلتي بالحافظ أحمد بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى إلى اشتغالي به في عملين علميين، الأول في تحقيق كتابه "الأخبار المسطورة في القراءة في الصلاة ببعض السورة"، والثاني في تحقيق فهرسته "البحر العميق في مرويات بن الصديق"، وهذا الأخير نلت به درجة الدكتوراه بدار الحديث الحسنية بالرباط.

ومن خلال ذلك أقول: إن ما سطره عن نفسه في فهرسته "البحر العميق"، وما جاء في مصادر ترجمته، قد يكون كافيا لمن أراد الوقوف على أهم الجوانب من حياته.

ثم إن شهرته وكثرة مترجميه تجعل الباحث غالبا، عند ما يريد ترجمته والتعريف به، يسقط في تكرار ما ذكره سابقوه.

واعتبارا لما يفرضه المنهج العلمي في الكلام عن جهود عالم في فن من الفنون، التعريف بالعالم أولا، سأحاول في هذه العجالة أن أقتنص بعض الجوانب المهمة من حياته، آخذا بعين الاعتبار مصادر ترجمته المتنوعة.

وسأتناول ذلك في نقط ثلاثة، **الأولى** في مصادر ترجمته، **والثانية** في التعريف به نسبا ونشأة، **والثالثة** في حياته العلمية: الرحلات والشيوخ .

النقطة الأولى: في مصادر ترجمته

آصل مصدر في التعريف بالحافظ أحمد بن الصديق هو فهرسته "**البحر العميق في مرويات بن الصديق**"؛ إذ تحدث فيها عن الجوانب المهمة من حياته نسبا ونشأة وطلبا للعلم.

ثم ترجمة نفسه في كتابه الذي أفرده في ترجمة والده المسمى "سبحة العقيق في ترجمة سيدي محمد بن الصديق"[١]، الذي اختصره في كتابه "التصور والتصديق" المطبوع[٢].

ويأتي في الصدارة بعده، ما ألفه أفراد عائلته؛ إذ لا شك أنهم تربطهم به أواصر القربى، ووشائج المودة، فتتهيأ لهم الصحبة والرفقة، والاطلاع عن قرب عن أدق أحواله، والتفاصيل الدقيقة عن شخصيته. منهم:

- شقيقه الشيخ عبد الله بن الصديق(ت١٤١٣هـ) في كتابه "سبيل التوفيق في ترجمة عبد الله بن الصديق"[٣]. في موضعين، الأول في فصل: من عاصرهم من أهل الحديث، والثاني عند ذكر شيوخه.

- وشقيقه الشيخ عبد العزيز بن الصديق(ت١٤١٧هـ) في كتابه "تعريف المؤتسي في ترجمة نفسي"[٤] المخطوط بمكتبة مؤلفه ، ذكر فيه ما وصله المؤلف من الدرجة العالية في العلم. وقال فيه: "إنه ابن حجر هذا العصر من غير منازع ولا مخالف". مشيدا بتآليفه، وبتبحره في شتى صنوف العلوم، وأنه قد وصل درجة الاجتهاد والاستنباط، ونبذ التقليد في كل ما يتقنه من كل العلوم. وأشار إلى أنه استفاد منه كثيرا في تحصيل العلوم، وأنه عمدته في الرواية. وختم ترجمته بتفصيل في أسباب اعتقاله.

وليس ببعيد عن أفراد أسرته، تلميذه الشيخ العلامة عبد الله التليدي الكرفطي حفظه الله تعالى الذي توثقت صلته به عن طريق التلمذة الطويلة، والصحبة القريبة، فأتاح له ذلك التعرف عن جوانب من حياة الشيخ لا تخلو من إضافة، ولا تقل أهمية عما سطره أفراد عائلته، وذلك في كتابه "الأنس والرفيق بمآثر الشيخ سيدي ومولاي أحمد بن الصديق" أو "حياة الشيخ أحمد بن الصديق"[٥]، الذي خصصه لترجمته.

كما ترجم له أيضا ترجمة مختصرة في كتابه"ذكريات من حياتي"[٦].

ثم يأتي بعد هؤلاء طبقة من المترجمين أسوقهم بتتابع اعتبارا لتواريخ وفياتهم ممن توفي منهم، وهم:

---

[١]- ص٣٦٥- ٣٨٣ (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٨١٥د)، وقد حقق في إطار بحث الدكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، من طرف الباحثة كنزة عكة، تحت إشراف د/محمد تمسماني خلوق، نوقشت بتاريخ٢٧/٠٦/٢٠٠٥.

[٢]- طبع بدار مرجان للطباعة بمصر، ط٢، ١٩٨٠م، في ٢١٦ص.

[٣]- سبيل التوفيق، طبعة الدار البيضاء للطباعة بالقاهرة، دون تاريخ: ص٥٦ وص٦٢.

[٤]- تعريف المؤتسي ص١٧٨، وص١٩٥.

[٥]- طبع بالمطبعة المهدية بتطوان- المغرب، ط١، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، في ١١٤ص.

[٦] - طبعة دار القلم- دمشق، ط(١)، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م: ص١٤٤-١٤٦.

– الشيخ عبد السلام بن عبد القادر بن سودة(ت١٤٠٠هـ) في فهرسة شيوخه المسماة "سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال"[١]، وفي "إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع"[٢].

– والشيخ عبد الرحمن بن محمد الباقر الكتاني(ت١٤٠١هـ) في كتاب"من أعلام المغرب العربي في القرن الرابع عشر"[٣].

– والشيخ محمد مختار الدين بن زين العابدين الفلمباني(ت١٤١١هـ) في "بلوغ الأماني في التعريف بشيوخ وأسانيد مسند العصر محمد ياسين بن عيسى الفاداني المكي"[٤].

– والشيخ محمد الفاطمي ابن الحاج السلمي(ت١٤١٢هـ) في "إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين"[٥].

– والشيخ عبد الله الجيراري في"التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين"[٦].

– وخير الدين الزركلي في "الأعلام"[٧] ترجمه ترجمة مختصرة، ولم يشر إلى مصادر ترجمته.

– والأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في "الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية"[٨].

– والدكتور يوسف المرعشلي في "معجم المعاجم والمشيخات"[٩].

– والأستاذ عبد الصمد العشاب في كتابه "من أعلام طنجة في العلم والأدب والسياسة"[١٠].

– والأستاذ حسن الكتاني في كتابه "فقه الحافظ أحمد بن الصديق الغماري"[١١] إذ خصص التمهيد من كتابه المذكور لحياة المؤلف وعصره، وجعل ذلك في مبحثين، الأول في عصره من النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية في ثلاثة مطالب، والثاني في حياته في سبعة مطالب.

---

[١] – طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، تحقيق د/محمد حجي، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م: ص١٨١-١٨٤

[٢] – طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، تحقيق د/محمد حجي، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م: ج٢ص٥٧٤

[٣] – طبعة دار البيارق، عمان، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م: ص١٢٠-١٢١

[٤] – طبعة دار قتيبة، دمشق- بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م: ص١٨٥ ترجمة رقم١٦٩.

[٥] – طبعة مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م: ص٣٤

[٦] – طبعة مكتبة المعارف- الرباط، الطبعة ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م: ج١ ص٣١

[٧] – طبعة دار العلم للملايين- بيروت، ط(١٥)، ٢٠٠٢م: ج١ ص٢٥٣

[٨] – طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م: ٢/٢٤ و ١٣٥/٣

[٩] – معجم المعاجم والمشيخات٢/٥١٤-٥١٧

[١٠] – من منشورات المجلس العلمي المحلي بطنجة- المغرب، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م: ج١ص١١٦-١٢٥

[١١] – ص٢٥-٦٦

واعتبارا لما حظي به من شهرة وسمعة تعدت حدود المغرب، واعتبارا لكونه عاش شطرا من حياته في المشرق، فقد اعتنى به من رجال المشرق الشيخ محمود سعيد ممدوح فترجم له في "تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع"[١]، وفي "ارتشاف الرحيق من أسانيد عبد الله بن الصديق"[٢]، وفي "فتح العزيز بأسانيد السيد عبد العزيز"[٣]، وفي "تزيين الألفاظ بتتميم ذيول تذكرة الحفاظ"[٤]، وفي "إعلام القاصي والداني ببعض ما علا من أسانيد الفاداني"[٥]. كما أفرده بترجمة خاصة سماها "مسامرة الصديق ببعض أحوال أحمد بن الصديق"، قدم بها لكتاب المؤلف "عواطف اللطائف من أحاديث عوارف المعارف"[٦].

هذا مما تيسر لي الوقوف عليه من مصادر ترجمته. وهناك مراجع أخرى لم أقف عليها ذكر بعضها الشيخ محمود سعيد ممدوح في "مسامرة الصديق"[٧]، وتزيين الألفاظ[٨].

وقد حظيت كتبه بعناية المعاصرين فاتجهت همتهم إلى تحقيق بعض كتبه، وهذا ما دفع بالمحققين إلى إفراد ترجمته في مقدمات تحقيقهم، أذكر منهم:

– تلميذ المؤلف الشيخ محمد أحمد مرسي النقشبندي في مقدمة تحقيق كتاب "البرهان الجلي"[٩]، وفي مقدمة تحقيق كتاب "الكنز الثمين"[١٠] لشقيق المؤلف الشيخ عبد الله بن الصديق رحمه الله تعالى.

– السيد مصطفى صبري في مقدمة تحقيقه لكتاب"المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي"[١١].

– والدكتور يوسف المرعشلي وعدنان شلاق في مقدمة تحقيق كتاب"الهداية بتخريج أحاديث البداية"[١].

---

[١] – طبعة دار الشباب للطباعة– القاهرة، دون تاريخ: ص٧١–٨٥

[٢] – طبعة دار المدني–القاهرة، دون تاريخ: ص٦٦

[٣] – طبعة دار البصائر– دمشق ، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م: ص٧

[٤] – طبعة دار البشائر الإسلامية– بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م: ص١٠١–١٠٦

[٥] – ص١٣–١٤

[٦] – تقع في ١٠٨ صفحة. وقد طبع الكتاب بالمكتبة المكية بمكة المكرمة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م بتحقيق أديب الكمداني ومحمد محمود المهدي أحمد، في مجلدين.

[٧] – ص١٢–١٤

[٨] – ص١٠٥–١٠٦

[٩] – طبع بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م في ٢٤٥ ص.

[١٠] – طبع بمكتبة الرياض الحديثة، الرياض، دون تاريخ، في ٦٨٢ص.

[١١] – طبع بدار الكتبي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، في ٦ مجلدات.

- والأستاذة بشرى الحديوي في مقدمة تحقيق كتاب"حصول التفريج بأصول العزو والتخريج"[٢].
- والأستاذ محمد الأزرق الأنجري في مقدمة تحقيقه لكتاب "التنكيل أو التقتيل لمن أباح التمثيل"[٣].

كما يضاف إلى ذلك بعض البحوث التمهيدية التي قدمت بدار الحديث الحسنية بالرباط إما دراسة عن المؤلف أو تحقيقا لبعض رسائله، أذكر منها:

- "الاستعاضة بحديث وضوء المستحاضة" حققه الطالب نور الدين لشكر، تحت إشراف شيخنا الدكتور العلامة سيدي محمد الراوندي.
- "الأخبار المسطورة في القراء في الصلاة ببعض السورة"، حققه عبد ربه -الأمين اقريوار-، تحت إشراف شيخنا الدكتور العلامة سيدي محمد الراوندي.
- "الشيخ أحمد بن الصديق محدثا من خلال فهرسته البحر العميق"، أعده الطالب الحسين اللغميش، تحت إشراف شيخنا الدكتور العلامة سيدي محمد يسف.

النقطة الثانية: في التعريف به نسبا ونشأة

أ- نسبه:

أما نسبه من جهة أبيه فهو شهاب الدين أبو الفيض وأبو العباس وأبو الخير أحمد بن محمد بن الصديق بن أحمد بن محمد بن قاسم بن محمد بن محمد -مرتين- بن عبد المؤمن بن محمد بن عبد المؤمن بن علي...[٤]، ينتهي نسبه إلى سيدي داود بن مولانا إدريس الأنور بن مولانا إدريس الأكبر فاتح المغرب بن مولانا عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن مولانا الحسن السبط ابن سيدنا علي وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله ﷺ وآله.

قال المؤلف[٥]: "هذا هو النسب المعروف الشائع بين عائلتنا والموجود بأيديهم في بعض التقاييد القديمة".

---

[١]- طبع بدار عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، في ٨ مجلدات.
[٢]- طبع بدار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، في ١١٢ص.
[٣]- طبع بدار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، في ١١٢ص.
[٤]- انظر بقية السلسلة في "البحر العميق ص١٥. وهي فهرسته التي تم تحقيقها من قبل كاتب هذا المقال د.الأمين اقريوار، في إطار أطروحة نال بها درجة الدكتوراه بدار الحديث الحسنية بالرباط المغرب، ولا زالت مرقونة.
[٥]- في التصور والتصديق ص٦

وقال الشيخ عبد الله التليدي الكرفطي[١]: "فهذا هو النسب الشائع بين العائلة الصديقية من قديم الزمان ثابت محقق بطريق الاستفاضة والتواتر كما ذكره المترجم له في "سبحة العقيق" و"المؤذن" و"التصور والتصديق" متصل بتمامه مع نقول في الموضوع".

وأما نسبه من جهة أمه فينتهي أيضا إلى مولانا إدريس الأكبر فهي حفيدة الإمام المفسر العارف بالله سيدي أحمد بن عجيبة الحسني المتوفى سنة ١٢٢٤هـ[٢].

وأصل عائلته من قبيلة بني يزناسن المعروفة بأحواز تلمسان، وقدم جدهم الأكبر من الأندلس في القرن الخامس ونزل بأحواز تلمسان ونشأ بها عقبه. إلى أن اشتهر منهم الولي الشهير سيدي عبد المؤمن الكبير المعروف بأبي قبرين وذلك في القرن التاسع، أو آخره.

ثم انتقل حفيده سيدي عبد المؤمن الصغير إلى غمارة أواسط القرن العاشر، خرج لطلب شيخ التربية، فاتصل بالشيخ العارف أبي الحسن علي الشلي نزيل جبل سريف (بقبيلة أهل سريف) المتوفى به سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، فأخذ عنه وتخرج على يديه.

ثم انتقل يطلب محلا يختلي فيه للعبادة، فنزل بالموضع المسمى "تجكان" من قبيلة بني منصور الغمارية، وأقبل على العبادة، وظهرت على يديه كرامات كانت السبب في اشتهاره بتلك البلاد واستقراره بها إلى أن مات وترك عقبه بها إلى اليوم[٣].

والمؤلف رحمه الله تعالى ذكر تراجم بعض أجداده من جهة الأب في مؤلفاته:"سبحة العقيق"[٤] و"التصور والتصديق بأخبار الشيخ أحمد بن الصديق"[٥]، مركزا في ذلك على الذين كان لهم أثر واشتهروا بين الناس. وتبعه في ذلك الشيخ عبد الله التليدي في "حياة الشيخ أحمد ابن الصديق"[٦]، إذ خصص لهم الباب الثاني من كتابه المذكور.

ب- نشأته:

---

[١] -في حياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٦

[٢] -تشنيف الأسماع ص٧١ وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٦

[٣] - انظر: أحمد بن الصديق، التصور والتصديق ص٨، والشيخ التليدي، حياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٦-٧

[٤] -انظر الباب الثاني من "سبحة العقيق" (مخطوط) ص٩.

[٥] -ص ٨-٢٤.

[٦] -ص٧.

ولد الشيخ أحمد بن الصديق الغماري رحمه الله تعالى يوم الجمعة سابع عشر شهر رمضان سنة عشرين وثلاثمائة وألف هجرية بقبيلة بني سعيد الغمارية في بيت عمته الشريفة للا حبيبة بمكان يدعى "مجيحين".

وبعد شهرين رجع به والده إلى طنجة فنشأ بها واهتم به ورباه أحسن تربية. ولما بلغ خمس سنين أدخله إلى المكتب لحفظ القرآن الكريم على أحد تلامذته في العلم والطريق، وهو الفقيه السيد العربي بودرة الغربي[١]. وقرأ أيضا ختمة من القرآن العظيم على الفقيه عبد الكريم البراق الأنجري، وكان يتقن علم الرسم، فأتقن عليه ذلك بنظم الخراز وشرحه فتح المنان لعبد الواحد بن عاشر[٢].

وبعد إكماله لحفظه وتجويده أمره والده بحفظ بعض المتون، فحفظ "المقدمة الآجرومية" في النحو، و"المرشد المعين للضروري من علوم الدين" لابن عاشر في العقيدة والأخلاق والعبادات على الفقه المالكي، وحفظ "بلوغ المرام من أدلة الأحكام" للحافظ ابن حجر، و"العقيدة السنوسية" في الاعتقاد على المذهب الأشعري، و"ألفية ابن مالك" في النحو، و"جوهرة التوحيد" للقاني في العقيدة الأشعرية، و"البيقونية" في مصطلح الحديث، و"مختصر خليل" في الفقه المالكي. وبعدها أمره بحفظ "ألفية العراقي" فحفظ أكثرها، وهو في كل هذه المدة يحضر دروس والده في "مختصر خليل"، و"صحيح البخاري" بالجامع الأعظم بطنجة، ومجالس مذاكراته بزاويته، ويلازمه في البيت في علوم جمة من تفسير، وحديث، وفقه على المذاهب الأربعة، وتصوف، وتاريخ، وتراجم الأئمة والعلماء والصوفية والعارفين، ورجال الحديث وغيرهم.

كما حضر بعض دروس "مختصر خليل بشرح الدردير" على الفقيه أحمد بن عبد السلام السميحي المتوفى سنة ١٣٦١هـ.

وكان والده رحمه الله تعالى معتنيا به أشد الاعتناء ويذاكره في شتى الفنون. ويحثه على الطلب والتعب في التحصيل، ويذكر له تراجم العلماء ليتخلق بأخلاقهم ويسعى مسعاهم[٣]. وكان يذكر له أثناء المذاكرة الكتب النفيسة وفائدتها ومزيتها وأقوال العلماء فيها حتى كان من أعلم الناس بالكتب[٤].

[١] -البحر العميق ص١٧
[٢] -البحر العميق ص١٨
[٣] - تشنيف الأسماع ص٧٢
[٤] - حياة الشيخ أحمد بن الصديق ص١٣

ثم حبب الله إليه الحديث الشريف فأقبل على قراءته خاصة الأجزاء الحديثية، وكتب التخريج والرجال. وقد ذكر جل الكتب التي قرأها في هذه الفترة في كتابه هذا "البحر العميق"[1]، وفي كتابه "سبحة العقيق"[2].



النقطة الثالثة: حياته العلمية، الرحلات والشيوخ



أ–رحلاته:

أول رحلة قام بها المؤلف كانت مع والده عند توجهه لأداء فريضة الحج عام ١٣٢٩هـ. وكان رحمه الله تعالى آنذاك في التاسعة من عمره. ثم بعد ذلك قام بعدة رحلات داخل المغرب وخارجه.

فتوجه إلى القاهرة سنة ١٣٣٩هـ، صحبة اثنين من أصحاب والده من أجل خدمته.

وأثناء هذه الرحلة مر في طريقه على الجزائر والإسكندرية، وزار من بهما من الأولياء والصالحين بإيصاء من والده.

ولما وصل إلى القاهرة انخرط في دروس الأزهر، فدرس على الشيخ محمد إمام ابن إبراهيم السقا "مقدمة الآجرومية بشرح الكفراوي"، و"ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل وحاشية السجاعي".

[1] – البحر العميق ص١٩-٢١

[2] – سبحة العقيق(مخطوط) ص٣٦٥

وقرأ عليه أيضا "السلم بشرح البيجوري"، و"جوهرة التوحيد بشرح البيجوري" أيضا. وسمع عليه "مسند الإمام الشافعي"، و"ثلاثيات البخاري"، و"الأدب المفرد" له، و"مسلسل عاشوراء بشرطه"، و"المسلسل بالأولية".

وقرأ على الشيخ حسن حجازي من شيوخ الأزهر "ألفية ابن مالك بشرح الأشموني وحاشيته". و"شرح التحرير لشيخ الإسلام زكرياء الأنصاري" في الفقه الشافعي.

وقرأ على الشيخ ياسين الجندي من شيوخ الأزهر "مختصر خليل بشرح الدردير وحاشية الدسوقي" من أوله إلى آخر كتاب النكاح.

ودرس "التفسير" و"صحيح البخاري" على علامة الديار المصرية الشيخ محمد بخيت.

ودرس "تفسير البيضاوي"، و"موطأ مالك"، و"التهذيب في المنطق للسعد التفتزاني بشرح الخبيصي وحاشية العطار" على الشيخ محمد السمالوطي.

وكان شيخه محمد إمام السقا يتعجب من ذكائه وسرعة فهمه وشدة حرصه على التعليم.

وبعد مرور سنتين وشهرين رجع إلى المغرب بطلب من والده، وذلك في شعبان سنة ١٣٤١هـ، فشرع في تدريس كتاب "الشمائل" للترمذي بزاوية والده ثم "الآجرومية".

وخلال هذه الفترة زار المؤلف عدة مدن مغربية، فزار فاس، وأدرك بها شيخ الجماعة أبا العباس أحمد بن الخياط الزكاري، فسمع منه "حديث الرحمة المسلسل بالأولية" و"المسلسل بالمصافحة"، و"المشابكة"، وأجاز له.

وأدرك بها أيضا الشيخ أبا العباس المهدي الوزاني فوجده ملازما للفراش من مرض موته، إذ توفي وهو بفاس أوائل سنة ١٣٤٢هـ. ثم زار الجديدة فأخذ بها عن العلامة المحدث أبي عبد الله محمد بن إدريس القادري، وسمع منه،"حديث الرحمة" وأجاز له.

ثم رباط الفتح فأخذ عن الشيخ فتح الله بن أبي بكر البناني، وسمع منه "حديث المسلسل بالأولية" وغيره كبعض مؤلفاته. كما أخذ عن شيخ علماء الرباط أبي عبد الله محمد المكي البطاوري، وأجاز له. واجتمع أيضا بسلا بالمحدث الشيخ عبد الحي الكتاني وأجاز له.

ثم رحل مرة ثانية إلى القاهرة في ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ. فسمع "صحيح مسلم" على أبي العباس أحمد بن نصر العدوي، من أوله إلى آخر كتاب النكاح، وأوائل "سنن أبي داود".

كما درس على الشيخ محمد شاكر، ومحمود خطاب السبكي، وخليل المالكي[١]، والشيخ حسن حجازي، والشيخ عبد المقصود عبد الخالق، والشيخ ياسين الجندي. وكلهم من علماء الأزهر الشريف.

ثم لازم الشيخ عمر حمدان المحرسي ثلاثة أشهر عند قدمته إلى القاهرة، فسمع عليه "صحيح البخاري"، والجزء الأول من "المستدرك" للحاكم، وبعض "الأذكار للنووي"، وقرأ عليه "عقود الجمان" في البلاغة للحافظ السيوطي، وسمع منه "حديث الرحمة"، وكثيرا من "المسلسلات" و"أوائل سنبل" وغيرها، وانتفع به.

كما حضر في الأزهر "شرح المنهج لزكريا الأنصاري بحاشية البجيرمي" على الشيخ محمد البحيري، و"شرح الخطيب على متن أبي شجاع"، على شيخ الشافعية الشيخ محمد بن سالم الشرقاوي المعروف بالنجدي.

كما تميزت هذه الفترة بقراءة المؤلف لمجموعة من كتب الفقه وأصوله والنحو والبلاغة وغيرها، وبانتقاله من المذهب المالكي إلى المذهب الشافعي.

ثم رحل أيضا إلى الشام سنة ١٣٤٤هـ، وأقام بها شهرين استجاز فيها معظم علمائها، وحضر دروس الشيخ محمد بن جعفر الكتاني في الجامع الأموي في "همزية البوصيري". وسمع منه "الأوائل العجلونية"، و"مسلسلات عقيلة" بأعمالها، وكثيرا من كتابه "في العلم المحمدي"، وغير ذلك.

ثم توجه إلى بيروت فأخذ عمن وجد بها من العلماء. ثم إلى بيت المقدس والخليل لزيارة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام. ومر في طريقه على بيت لحم وزار محل مولد يحيى عليه السلام، ولم يجد بالمقدس ولا بالخليل عالما يؤخذ عنه. ثم رجع إلى القاهرة وأكب على الحديث وانقطع للاشتغال به.

وفي سنة ١٣٤٤هـ قدم والده إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة الذي دعي إليه من علماء الأزهر فذهب معه أيضا إلى الشام لزيارة سيدي محمد بن جعفر الكتاني ثم رجعا إلى المغرب. وبقي المترجم بالمغرب حوالي أربع سنوات أقبل فيها على الاشتغال بالحديث حفظا ومطالعة وتصنيفا وتدريسا فدرس "نيل الأوطار" للشوكاني، و"الشمائل المحمدية" للترمذي[٢].

ثم رحل مرة ثالثة إلى القاهرة سنة ١٣٤٩هـ، قصد الحصول على الكتب المخطوطة، وأخذ معه أخويه عبد الله، ومحمد الزمزمي بقصد طلب العلم. وكان قد ذاع صيته واشتهر حتى احتاج إليه بعض علماء

---

[١]- في سبحة العقيق ص٦٩ : خليل الشافعي

[٢] -تشنيف الأسماع ص٧٥

مصر في معرفة درجة بعض الأحاديث. فأملى مجالس حديثية في المسجد الحسيني ومسجد الكخيا على طريقة المتقدمين.

وأثناء وجوده بالقاهرة هذه المرة أيضا كتب عدة من المصنفات التي تعرب عن تمكنه وبراعته بل واجتهاده في الحديث وأنه لا يوجد له نظير[١]. وارتحل إلى دمياط للأخذ عن شيخ علمائها أبي عبد الله محمد بن محمود الخفاجي، فسمع منه "حديث الرحمة بشرطه"، وأجاز له وتدبج معه.

ثم رجع إلى المغرب سنة ١٣٥٤هـ، بسبب وفاة والده رحمه الله تعالى، فجلس للتدريس والإملاء بزاويتهم والجامع الكبير بطنجة، وحث الناس على العمل بالسنة الشريفة وترك ما خالف الدليل ونبذ التقليد المخالف للسنة. فتبعه أهل طنجة وأغلب مناطق الشمال كتطوان والقصر الكبير والعرائش وسلا.

وحج المؤلف واعتمر وزار النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدة مرات، وأخذ عن جماعة من علماء الحرمين والواردين عليهما.

ودخل مدينة عدن من بلاد اليمن، ومدينة طلمنكة من بلاد إسبانيا، وكذلك فرنسا.

ورحل إلى القاهرة سنة ١٣٧٧هـ واستقر بها، وذلك بعد خروجه من المعتقل الذي تعرض له أثناء قيامه وجهاده ضد الاستعمار. وأثناء هذه الإقامة زار دمشق وحلب والسودان، وغيرها.

كما شد الرحلة إلى عدة مواقع: كتلمسان، والجزائر، وتونس، وطنطا، ودسوق، ومراكش، وسوس، وفاس، ووزان، وآسفي، ومكناس وغيرها من المدن والقرى؛ لزيارة من بها من الأولياء والصالحين.

ب- شيوخه:

للمؤلف الشيخ أحمد بن الصديق الغماري شيوخ كثيرون من المشرق والمغرب، وقد ذكر أكثرهم في كتابه "البحر العميق"، وكتابه "المعجم الوجيز للمستجيز" المطبوع في جزء صغير. وهم ينقسمون إلى قسمين، قسم أخذ عنهم العلوم الإسلامية وتلقى عنهم أيام دراسته بحثا وتدقيقا ودراية، وقد تقدم أكثرهم في مبحث رحلاته. وقسم سمع منهم بعض الكتب الحديثية وما يسمعه أهل هذا الشأن مع إجازاتهم إياه. وهؤلاء هم الأكثرون. واخترت ترتيب أصحاب القسم الأول حسب تدرج المؤلف في التلقي والأخذ عنهم، وأما القسم الثاني فرتبته على حروف الهجاء مع إفراد النساء عن الرجال.

- فمن القسم الأول:

---

[١] -تشنيف الأسماع ص٧٥

١- الفقيه العربي بن أحمد بودرة الغربي، نسبة إلى الغربية منطقة بنواحي مدينة أصيلا شمال المغرب. أخذ عنه القرآن الكريم وعلومه، والمقدمة الآجرومية، وألفية ابن مالك، والمقدمة السنوسية، والأربعين النووية، وبعض مختصر خليل، والمرشد المعين بشرح ميارة الصغير، والسنوسية[١].

٢- والده الشيخ محمد بن الصديق الغماري المتوفى سنة ١٣٥٤هـ،[٢]

ويعد من أجل شيوخ المؤلف. درس على يديه فنونا كثيرة[٣]. وأخذ عنه "مختصر خليل"، و"ألفية ابن مالك"، و"صحيح البخاري" ، وفي التصوف، والتراجم، والطب، والتاريخ، وجميع ما يحتاج إليه[٤]. قال المؤلف في البحر العميق[٥]: "ما بقي شيء من آداب الشريعة ومقامات الصوفية إلا وسمعه منه وأمره به وحثه على سلوكه".

٣- **الفقيه عبد الكريم البراق الأنجري،** نسبة إلى قبيلة أنجرة الواقعة بين تطوان وطنجة.

حفظ عليه القرآن الكريم، وعلم الرسم القرآني بنظم الخراز وشرحه فتح المنان لعبد الواحد بن عاشر[٦].

٤- الشيخ الصوفي أحمد بن عبد السلام العيادي السميحي الغماري الطنجي المتوفى سنة ١٣٦١هـ[٧]، أخذ عنه في مختصر خليل بالجامع الأعظم بطنجة.

٥- الشيخ محمد إمام بن إبراهيم السقا المصري المتوفى سنة ١٣٥٤هـ[٨] **من شيوخ الأزهر.**

قرأ عليه "الآجرومية بشرح الكفراوي"، و"ألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل وحاشية السجاعي"، و"التحرير في فقه الشافعي"، و"السلم بشرح البيجوري" في المنطق، و"جوهرة التوحيد"، و"شرح التحرير" لشيخ الإسلام في الفقه الإسلامي، وسمع عليه "مسند الشافعي"، و"ثلاثيات البخاري"، و"الأدب المفرد" له، و"مسلسل عاشوراء" بشرطة، و"المسلسل بالأولية".

---

[١] - سبحة العقيق ص٣٦٥، ومسامرة الصديق ص١٣.

[٢] -انظر الشيخ رقم(١) في البحر العميق.

[٣] -مقدمة تحقيق المداوي ص٥٧.

[٤] - سبحة العقيق ص٣٦٥ والتليدي، مرجع مذكور ص٨٢.

[٥] - البحر العميق ص١١٢.

[٦] - البحر العميق ص١٨، وسبحة العقيق ص٣٦٥.

[٧] - البحر العميق ص١٩، وسبحة العقيق ص٣٦٦، والتليدي مرجع مذكور ص٨٢، وفي كتاب"من أعلام طنجة" للعشاب ص٦٨ أنه توفي سنة ١٣٥٩هـ/١٩٣٨م.

[٨] - البحر العميق ص٢٧، وسبحة العقيق ص٣٦٨، والتليدي مرجع مذكور ص٨٢-٨٣، وتشنيف الأسماع ص٧٢-٧٣، ومسامرة الصديق ص١٩.

٦- الشيخ محمد بن سالم الشرقاوي شيخ الشافعية بمصر من علماء الأزهر الشهير بالنجدي المتوفى سنة ١٣٥٠هـ[١].

قرأ عليه "مشكاة المصابيح" للتبريزي، و"متن أبي شجاع" بشرحه "الإقناع" للشربيني في الفقه الشافعي، و"مختصر خليل" من أوله إلى آخر كتاب النكاح.

٧- الشيخ محمد بخيت بن حسين المطيعي المصري الحنفي الأزهري مفتي مصر المتوفى سنة ١٣٥٤هـ[٢].

أخذ عنه التفسير، و"صحيح البخاري" ولازمه فيهما سنتين، وحضر دروسه في "شرح الأسنوي على المنهاج" في الأصول، و"شرح الهداية" للمرغيناني في الفقه الحنفي، وسمع منه "مسلسل عاشوراء" بشرطه.

٨- الشيخ محمد بن ابراهيم السمالوطي القاهري المالكي المتوفى سنة ١٣٥٣هـ،أحد كبار العلماء الأزهر بمصر[٣].

قرأ عليه "التهذيب في المنطق"، و"تفسير البيضاوي"، و"موطأ مالك".

٩- الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن نصر العدوي نائب المالكية بمصر المتوفى سنة ١٣٤٧هـ،أو ١٣٤٨هـ[٤].

حضر عليه "صحيح مسلم بشرح النووي والأبي" من أوله إلى كتاب النكاح، و"أوائل سنن أبي داود بشرح عون المعبود".

١٠- الشيخ محمد بن أحمد شاكر المتوفى سنة ١٣٥٨هـ[٥].

قرأ عليه "جمع الجوامع" للسبكي.

[١] - البحر العميق ص٣٤، وسبحة العقيق ص٣٧١، والتليدي مرجع مذكور ص٨٣، وتشنيف الأسماع ص٧٣، ومسامرة الصديق ص٢٥.

[٢] - البحر العميق ص٢٧، وسبحة العقيق ص٣٦٨، والتليدي مرجع مذكور ص٨٣، وتشنيف الأسماع ص٧٣، ومسامرة الصديق ص٢٠.

[٣] - البحر العميق ص٢٧، وسبحة العقيق ص٣٦٩. والتليدي مرجع مذكور ص٨٣، وتشنيف الأسماع ص٧٣، ومسامرة الصديق ص٢١.

[٤] - البحر العميق ص٣٢، وسبحة العقيق ص٣٦٩، والتليدي مرجع مذكور ص٨٣، وتشنيف الأسماع ص٧٣، ومسامرة الصديق ص٢١.

[٥] - البحر العميق ص٣٢، وسبحة العقيق ص٣٧٠، والتليدي مرجع مذكور ص٨٣، وتشنيف الأسماع ص٧٤، ومسامرة الصديق ص٢٤.

١١- الشيخ محمد بن جعفر الكتاني الإدريسي الحسني أحد كبار علماء القرويين المتوفى سنة ١٣٤٥هـ[١].

سمع منه كثيرا من مسند الإمام أحمد، ومسلسلات عقيلة، والأوائل العجلونية، وحديث الرحمة بشرطه، وكثير من كتابه "العلم المحمدي" وغير ذلك.

١١- الشيخ محمود بن محمد خطاب السبكي الفقيه المالكي الأزهري المتوفى سنة ١٣٥٢هـ.[٢]

حضر عليه في "شرح الأسنوي على منهاج البيضاوي" في الأصول، وفي "سنن النسائي".

١٢- الشيخ خليل المالكي،[٣] أحد شيوخ الأزهر.

قرأ عليه بعض "لب الأصول" لشيخ الإسلام زكرياء الأنصاري.

١٣- الشيخ عبد المقصود عبد الخالق، من علماء الأزهر[٤].

قرأ عليه بعض "مختصر خليل بشرح الدردير".

١٤- الشيخ ياسين الجندي من علماء الأزهر الشريف[٥].

قرأ عليه "مختصر خليل بشرح الدردير وحاشية الدسوقي" من أوله إلى آخر كتاب النكاح.

١٥- الشيخ حسن حجازي من علماء الأزهر الشريف[٦].

قرأ عليه "ألفية ابن مالك بشرح الأشموني وحاشية الصبان"، من الأول إلى الإضافة، و"رسالة الوضع"، و"التهذيب في المنطق" للسعد التفتزاني بشرح الخبيصي وحاشية العطار".

١٦- الشيخ عمر بن حمدان المحرسي التونسي ثم المدني،محدث الحرمين المتوفى سنة ١٣٦٨هـ[٧].

---

[١] – البحر العميق ص٣٦، والتليدي مرجع مذكور ص٨٣، وتشنيف الأسماع ص٧٤، ومسامرة الصديق ص٢٦.

[٢] – البحر العميق ص٣٣، والتليدي مرجع مذكور ص٨٣، ومسامرة الصديق ص٢٤.

[٣] – البحر العميق ص٣٣، وسبحة العقيق ص٣٦٩، وفيه "خليل الشافعي"، والتليدي مرجع مذكور ص٨٣، ومسامرة الصديق ص٢١ باسم (خليل الشافعي).

[٤] –البحر العميق ص٣٣.

[٥] –البحر العميق ص٢٧، وسبحة العقيق ص٣٦٨، ومسامرة الصديق ص٢٠.

[٦] – البحر العميق ص٢٧، وسبحة العقيق ص٣٦٨، والشيخ التليدي مرجع مذكور ص٨٣، مسامرة الصديق ص٢٠.

[٧] – البحر العميق ص٣٣، وسبحة العقيق ص٣٧٠، ومسامرة الصديق ص٢٤.

قرأ عليه بمصر ولازمه ثلاثة أشهر، فسمع عليه "صحيح البخاري"، والجزء الأول من "المستدرك للحاكم"، وبعض "الأذكار للنووي"، وقرأ عليه "عقود الجمان في البلاغة" للحافظ السيوطي، وسمع منه "حديث الرحمة" بشرطه، وكثيرا من "المسلسلات"، و"أوائل سنبل" وغيرها.

١٧- **الشيخ محمد البحيري من علماء الأزهر الشريف**[١].

حضر عليه شرح المنهاج لزكرياء الأنصاري بحاشية البجيرمي.

هذه إذن قائمة ببعض شيوخ المؤلف من هذا القسم، والذين تتبعت أسماءهم في "البحر العميق" وفي بعض الكتب التي ترجمت للمؤلف رحمه الله تعالى.

- أما القسم الثاني من شيوخه الذين أجازوه بالرواية عنهم فهم كثر، منهم من ذكر في القسم الأول. وقد ذكر منهم في كتابه "البحر العميق" مائة وعشر شيوخ، وفي كتابه "المعجم الوجيز للمستجيز" ذكر منهم مائة شيخ.

توفي رحمه الله تعالى يوم الأحد فاتح جمادى الثانية سنة ثمانين وثلاثمائة وألف(٠١/٠٥/١٣٨٠هـ) الموافق لعشري نونبر عام ستين وتسعمائة وألف(٢٠/١١/١٩٦٠م)، ودفن بمقابر الخفير بالقاهرة[٢].

المحور الثاني:

جهود الحافظ أحمد بن الصديق الغماري في خدمة الفقه الإسلامي

تقدم معنا أن المؤلف رحمه الله تعالى منذ صغره وهو مقبل على تحصيل العلم الشرعي ومتعلقاته من نحو وبلاغة وصرف وغيرها، وقد أشرت إلى المراحل التي قطعها في تحصيله، من حضوره على شيوخه بالمغرب والمشرق، حتى أصبح مبرزا في أغلب هذه الفنون. إلا أن الناظر في مؤلفاته يلحظ تفوقه ونبوغه في علم الحديث والفقه وأصوله والتصوف على وجه الخصوص، وبالأول فاق علماء عصره واشتهر به بينهم. "غير أن علومه التي كان منقطعا إليها، ومعتكفا عليها، وداعيا إليها وإلى الإكثار منها، أربعة: التفسير والحديث والتصوف والفقه على سائر المذاهب"[٣].

---

[١] - البحر العميق ص٣٤، وسبحة العقيق ص٣٧١، ومسامرة الصديق ص٢٥.

[٢] - انظر حياة الشيخ أحمد بن الصديق ص١١٠-١١٤ وتشنيف الأسماع ص٧٧ وإسعاف الإخوان ص٣٧ وكتاب"من أعلام طنجة" للعشاب ١/١١٦-١١٧

[٣] -حياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٢٨.

وقد كثرت مؤلفاته وتنوعت في الفنون المشار إليها. قال تلميذه الشيخ عبد الله التليدي الكرفطي حفظه الله تعالى: "أما مؤلفاته فهي كثيرة جدا تناهز الثلاثمائة. والتي وقفنا عليها ورأيناها أو قرأناها فنحو مائة ونيف وأربعين. وقد كان الشيخ رضي الله تعالى عنه سيوطي زمانه في كثرة التأليف مع الإتقان والتحرير"[١].

وقال الشيخ عبد السلام بن سودة رحمه الله تعالى": "له تآليف عديدة بلغني أنها أكثر من مائتين، كلها مفيدة على اختلاف أنواعها في الحديث والسير والفقه وغير ذلك، وقد طبع بعضها وأفادت وانتشرت وتطلبها الناس... "[٢].

وقال الشيخ محمود سعيد ممدوح: "بلغت مصنفاته أكثر من ٢٠٠ مصنفا أكثرها في الحديث الذي كان يمشي فيه على طريقة الحفاظ الأولين ولا يقلد أحدا. ومصنفاته شاهدة على إمامته.."[٣].

وسأحاول في هذا المحور إبراز بعض الجهود التي بذلها المؤلف رحمه الله تعالى في خدمة الفقه الإسلامي وأصوله.

ففي أصول الفقه حضر المؤلف مجالس في "جمع الجوامع" على الشيخ محمد شاكر، وفي "شرح الأسنوي على منهاج البيضاوي" في الأصول على الشيخ محمود خطاب السبكي، وفي "لب الأصول" لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري على الشيخ خليل المالكي، وكلهم من شيوخ الأزهر. إلا أنه لم يرقه الجميع، فاعتزل دروسهم. وأقبل على مطالعة كتب الأصول وحده، فقرأ "إرشاد الفحول" للشوكاني، و"المستصفى" للغزالي، واعتنى بهذا الأخير حتى كان يستحضر جل مسائله لأنه ميال بطبعه إلى البسط وذكر أدلة الأقوال، فاكتفى بذلك عن حضور هذا العلم على أحد من الناس[٤].

ثم وإن كان رحمه الله تعالى لم يؤلف في هذا العلم كتابا مستقلا، فيما أعلم على كثرة مؤلفاته، فإنه قد أودع عدة مباحثه في كتبه الفقهية والحديثية، منها: "المثنوني والبتار"، و"نفث الروع في أن الركعة لا تدرك بالركوع"، و"تحقيق الآمال في إخراج زكاة الفطر بالمال"، و"إزالة الخطر عمن جمع بين الصلاتين من غير سفر ولا مطر"، و"توجيه الأنظار في توحيد المسلمين في الصوم والإفطار"، و"إحياء المقبور"، وغيرها.

---

[١] – حياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٨٥-٩١.
[٢] – سل النصال ص١٨١.
[٣] – تشنيف الأسماع ص٧٨.
[٤] – يراجع البحر العميق ص٣٢.

كما أن للشيخ رحمه الله تعالى رسائل كثيرة متفرقة عند تلاميذه وأصحابه ومعارفه ومكاتبيه في سائر الأقطار بحيث لو جمعت لجاءت في عدة مجلدات. بل لشقيقه العلامة المحدث السيد عبد العزيز على الخصوص نحو من ألف رسالة كان السيد أحمد يبعثها إليه من المغرب إلى القاهرة، حيث كان يقيم للدراسة طوال اثنتي عشرة سنة[١]. وقد حوت هذه الرسائل بعض المباحث في أصول الفقه وغيره، تظهر مدى اهتمام المؤلف بهذا العلم.

وقد أقدم تلميذه الشيخ عبد الله التليدي على إخراج بعض هذه الرسائل وطبعها تحت اسم "در الغمام الرقيق برسائل الشيخ السيد أحمد بن الصديق"[٢]. فذكر فيها من مباحث هذا الفن أربعة وعشرين مبحثا[٣]، منها:

- معنى الحكم عند الأصوليين[٤].
- مسألة القول والتكرار عند الأصوليين[٥].
- تعارض الأمر والنهي[٦].
- التخصيص بالعادة وبالقياس وبمذهب الصحابي[٧].
- تأخير البيان عن وقت الحاجة والكلام على المفاهيم[٨].
- الكلام على المجمل والمبين وخطاب الله للرسول ﷺ وآله، وعلى ماذا يدل فعله ﷺ وآله[٩].
- موضوع واقعة عين[١٠].
- التكليف بما لا يطاق[١١].

---

[١] – انظر كتاب در الغمام للشيخ التليدي: ص٥

[٢] – طبع بدار الأمان، الرباط، سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، في ٢٥٢ص.

[٣] – انظر در الغمام ص٩-٥٩

[٤] – المرجع السابق ص٩

[٥] – المرجع نفسه ص١٠

[٦] – المرجع نفسه ص١١

[٧] – المرجع نفسه ص١٢

[٨] – در الغمام ص١٤

[٩] – المرجع نفسه ص١٥

[١٠] – المرجع نفسه ص١٧

[١١] – المرجع نفسه ص١٨

- معارضة فعل النبي ﷺ وآله العام لقوله الخاص بالأمة وقول بعضهم: حكم على الواحد وليس على الجماعة[١].
- حول العام والخاص[٢].
- التحسين والتقبيح[٣].
- الحكم بالقرائن والقافة[٤].
- علة التشريع[٥].
- مبحث في الإجماع[٦].
- حول القياس[٧].
- من أبحاث النسخ[٨]. وغيرها من المباحث.

وكان له في هذه المباحث آراء خاصة به، تارة يوافق فيها الجمهور، وتارة أخرى يخالفهم، كما هو شأنه في مذهب الصحابي فهو عنده ليس بدليل شرعي، وإنما الفقهاء يستروحون إليه عند نصرة هواهم في نظره بدليل أنهم يخالفونه عندما يكون مخالفا لهواهم[٩].

وكذلك شأنه في العام والخاص إذ يرى أن العام يعمل به دون توقف للبحث عن المخصص. قال في إحدى رسائله[١٠]: "والإجماع على عدم العمل بالعام قبل البحث عن المخصص أكذب من كل كذب موجود في الدنيا. وقد أطلت القول في هذه المسألة جدا في المثنوني والبتار[١١]، بما لا تجده في كتاب إن شاء الله..." وغير ذلك.

---

١ – المرجع نفسه ص١٨
٢ – المرجع نفسه ص٢١
٣ – المرجع نفسه ص ٢٢
٤ – المرجع نفسه ص٢٢
٥ – المرجع نفسه ص٢٤
٦ – المرجع نفسه ص٢٥
٧ – المرجع نفسه ص٢٦
٨ – المرجع نفسه ص٢٩
٩ – المرجع نفسه ص١٤
١٠ – در الغمام ص٢١
١١ –المثنوني والبتار ص٨٥-١١٣

كما يرى أن البحث عن علل التشريع من الفضول والبحث الضائع، بل قد يكون من الكذب على الله تعالى. وقال: والعلة في التشريع لا يعرفها إلا الشارع ما لم ينص عليها أو تكون ظاهرة لا خفاء بها. ومثل لذلك بأن الله أباح الجواهر وحرم الذهب، كما أباح الكبش وحرم الخنزير وأباح حمار الوحش وحرم الحمار الأهلي ولا فرق بينهما[١].

أما الفقه فقد كانت فيه للمؤلف صولة وجولة إلى جانب الحديث. ويرجع ذلك إلى نشأته الأولى في طلب العلم؛ إذ تلقى علومه الأولية على شيوخ المذهب المالكي بالمغرب وكذلك بمصر، وعلى رأسهم والده رحمه الله تعالى الذي كان له اطلاع كبير بهذا المذهب.

فقد كان وهو في بداية الطلب قد حفظ "المرشد المعين"، وبعض "مختصر خليل" على شيخه الغربي بودرة. كما حضر درسهما عليه. وعلى الفقيه أحمد بن عبد السلام السميحي دروسا في"مختصر خليل في شرح الدردير".

وبمصر قرأ مختصر خليل أيضا على الشيخ ياسين الجندي، وعبد المقصود عبد الخالق، وموطأ الإمام مالك على الشيخ محمد السمالوطي.

ثم بعد ذلك اهتم بالمذهب الشافعي فصار يحضر في الأزهر "شرح المنهج" لزكريا الأنصاري على الشيخ محمد البحيري، و"شرح الخطيب على متن أبي شجاع" على شيخ الشافعية محمد بن سالم الشرقاوي المعروف بالنجدي. واعتنى بكتاب"شرح المهذب" للنووي وأقبل بكليته عليه، وحفظ "متن الزبد" لابن رسلان في الفقه الشافعي، وطالع شرحه للفشني والرملي.

وقد سمت همة السيد أحمد بن الصديق، رحمه الله تعالى للحصول على كتب السادة المالكية التي تعنى بالدليل والتعليل تأصيلا وتفريعا ثم طبعها ونشرها بين الناس[٢].

وقد أرشده والده إلى كتاب "البيان والتحصيل" لابن رشد الذي يذكر الفروع وأدلتها، وأنه موجود عند أولاد ابن صالح بقبيلة بني رزين الغمارية، إلا أنه رحمه الله تعالى لما شد الرحلة إلى غمارة وجد يد الضياع والإهمال قد سطت على نسخته العتيقة المجزأة على اثنتي عشر مجلدا، ولم يبق منها إلا مجلدان[٣].

فكان ذلك هو السبب في أن شرع في وضع كتاب على رسالة ابن أبي زيد القيرواني يذكر فيه لكل مسألة أدلتها من الكتاب والسنة والقياس سماه: "تخريج الدلائل لما في رسالة القيرواني من الفروع

---

[١] -راجع در الغمام ص٢٤-٢٥
[٢] -مسامرة الصديق ص٥٩
[٣] -البحر العميق ص٣٧-٣٨

والمسائل" فكتب منه مجلدا إلى كتاب النكاح. ثم عدل عن التطويل فشرع في آخر يذكر في كل مسألة حديثا أو حديثين فأتمه في مجلد وسماه "مسالك الدلالة عن مسائل الرسالة". كما قام بتخريج أحاديث كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لابن رشد الحفيد المالكي في كتابه "هداية الرشد في تخريج أحاديث ابن رشد"، إضافة إلى كتابه "مدارك الاستقالة من ضعيف مسالك الدلالة"، و"البيان والتفصيل لوصل ما في الموطأ من البلاغات والمراسيل". وهذه المؤلفات وغيرها تظهر لنا عن مدى اهتمامه بالفقه المالكي.

وكان رحمه الله تعالى يخالف من يقدم قول مالك الذي في المدونة على قوله في الموطأ[١].

وفي ما يأتي قائمة بمؤلفاته في الفقه مرتبة ترتيبا هجائيا:

- الإجازة للتكبيرات السبع على الجنازة[٢].
- الأحاديث المسطورة في القراءة في الصلاة ببعض السورة[٣].
- إحياء المقبور بأدلة بناء المساجد والقباب على القبور[٤]..
- إزاحة الخطر عمن جمع بين الصلاتين في الحضر من غير مرض ولا مطر، أو إنالة الوطر برفع الحرج عمن جمع بين الصلاتين في الحضر من غير مرض ولا مطر[٥].

---

[١] -مسامرة الصديق ص٦٤

[٢] - البحر العميق: كتاب رقم ٣٨. وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٧. ومنه نسخة بخط المؤلف بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٧٩٣د في ١٣ورقة. وقد وقفت على طبعة له بتحقيق بدر العمراني مع رسائل أخرى بدار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. وأفاد أنه قد حققه بعض الطلبة اعتمادا على نسخة الشيخ بوخبزة لنيل شهادة الإجازة بكلية الآداب بتطوان.

[٣] - البحر العميق: كتاب رقم ١٠٦، وسبحة العقيق ص٣٨١، وجؤنة العطار ١/٥٤، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٦، وتشنيف الأسماع ص ٨٠، ومسامرة الصديق ص٤٥، وقد قمت بتحقيقه في البحث التمهيدي بدار الحديث الحسنية تحت إشراف فضيلة الدكتور سيدي محمد الراوندي، اعتمادا على نسخة بخط المؤلف يوجد أصلها عند تلميذه الشريف سيدي محمد البقالي بطنجة، ومعه كتاب "الطرق المفصلة لحديث أنس في البسملة" الكل في مجلد متوسط وقفت عليه.

[٤] - البحر العميق: كتاب رقم ١٩. وسبحة العقيق ص٣٨١، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٦، ومسامرة الصديق ص ٤٨ وقال: طبع بالقاهرة ثم صور مرات، ومقدمة المداوي ص٨٧. وقد طبع بمطبعة دار التأليف بمصر دون تاريخ وهو عندي في ٦٣ صفحة. وطبع أيضا بمكتبة القاهرة بمصر، منها الطبعة الثالثة سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ومعه كتاب شقيقه سيدي عبد الله "إعلام الراكع الساجد باتخاذ القبور مساجد".

[٥] - البحر العميق: كتاب رقم ٢٠. وسبحة العقيق ص٣٨١، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٨٦، وتشنيف الأسماع ص٨٥ ومسامرة الصديق ص٤٧، ومقدمة المداوي ص٨٨، كلهم ذكروه تحت اسم "إزالة الخطر" إلا في البحر العميق باسم "إزاحة الخطر". وقد طبع تحت اسم"إزالة الخطر عمن جمع بين الصلاتين في الحضر" بمطبعة دار التأليف بمصر دون تاريخ في ١٦١ص، وفي آخره قائمة بأسماء مؤلفاته.

- أزهار الروضتين فيمن يؤتى أجره مرتين[١].
- الاستعاذة والحسبلة ممن صحح حديث البسملة[٢]، أي حديث: (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع).
- الاستعاضة بحديث وضوء المستحاضة[٣].
- الإعلان بالبراءة من حديث: (من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة)[٤].
- إقامة الدليل على حرمة التمثيل[٥].
- الإقناع بصحة صلاة الجمعة خلف المذياع[٦].
- بيان الحكم المشروع بأن الركعة لا تدرك بالركوع[١].

---

[١]- لب الأخبار ص34، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٦، وتشنيف الأسماع ص ٨٠ وقال: في جزء(خ)، ومقدمة المداوي ص٨٨، وتراث المغاربة في الحديث ص٤٤.

[٢]- البحر العميق: كتاب رقم ١٠. وسبحة العقيق ص٣٨٠، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٦، مسامرة الصديق ص٤٣، ومقدمة المداوي ص٨٨ وقال: طبع بمصر وبيروت. قلت: وقد طبع بجاكرتا إندونيسيا بدون تاريخ مع رسائل أخرى للمؤلف وهي: صفع التياه بإبطال حديث "ليس بخيركم من ترك دنياه"، وهدية الصغراء بتصحيح حديث التوسعة يوم عاشوراء، في ٥٠ صفحة. وطبع بمكتبة القاهرة بمصر، وقفت على طبعته الرابعة لسنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، طبع مع كتابين آخرين للمؤلف وهما: إرشاد المربعين المتقدم، وشوارق الأنوار المنيفة بظهور النواجذ الشريفة، الكل في ٤٨ص. وطبع أيضا بمكتبة طبرية بالرياض سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م في ٣٤ ص، مع رسائل أخرى للمؤلف وهي: حصول التفريج في ٩٤ص، والمسهم ببيان حال حديث "طلب العلم فريضة على كل مسلم" في ٥٤ص، ورفع المنار في ٤٩ص.

[٣]- البحر العميق: كتاب رقم ٩٧. وسبحة العقيق ص٣٨١، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٦، ومسامرة الصديق ص٤٥، ومقدمة المداوي ص٨٨. وقد حقق من طرف الطالب نور الدين لشكر في إطار البحث التمهيدي بدار الحديث الحسنية بإشراف شيخنا وأستاذنا الدكتور سيدي محمد الراوندي وهو مرقون بالمؤسسة المذكورة. وطبع بتحقيق عدنان زهار بدار الكتب العلمية سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م مع رسالة أخرى للمؤلف "فصل القضاء" الآتي ذكرها في حرف الفاء، كلاهما في ٧٣ صفحة. ويوجد أصله مخطوطا بخط المؤلف بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٧٩٠د في ١٢ ورقة.

[٤]- ذكره المؤلف في كتابه "نفث الروع" ص ٧٢.

[٥]- البحر العميق: كتاب رقم ١٢١. وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٦، وتشنيف الأسماع ص ٨٥، ومقدمة المداوي ص٨٩. وقد طبع بدار العهد بالقاهرة سنة ١٣٧٤هـ، مع كتاب "إزالة الالتباس عما أخطأ فيه كثير من الناس" لشقيقه الشيخ عبد الله بن الصديق، كلاهما في ٤٨ ص.

[٦]- البحر العميق: كتاب رقم ١٢٧. ومقدمة المداوي ص٨٩. وقد طبع بمطبعة دار التأليف بالقاهرة سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، وقدم له شقيقه سيدي عبد الله بن الصديق رحمه الله تعالى. وقفت عليه في ٦٠ ص بالفهارس. وأصله مخطوط بخط المؤلف بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٣٨٠٣د.

- تبيين البله ممن أنكر حديث (**ومن لغا فلا جمعة له**)[٢]. وهو رد على الشيخ عبد الحي الكتاني في كتابه " عقد اليواقيت والزبرجد في أن (ومن لغا فلا جمعة له) مما نقب عنه في الأخبار فلم يوجد". إذ أنكر فيه وجود هذا الحديث. والحديث باللفظ المذكور خرج في تاريخ واسط لبحشل من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ وآله: (من تكلم يوم الجمعة، والإمام يخطب فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له)[٣].
- تحسين السمعة بتعيين موقف المؤذن يوم الجمعة. ويسمى أيضا "تزيين السمعة بتعيين موقف المؤذن يوم الجمعة"[٤].
- تحسين الفعال بالصلاة في النعال[٥].
- تحقيق الآمال في إخراج زكاة الفطر بالمال[٦].
- تخريج الدلائل لما في رسالة القيرواني من الفروع والمسائل[١]. كتب منه مجلدا إلى كتاب النكاح، ثم عدل عن التطويل فشرع في آخر مختصرا، وسماه "مسالك الدلالة على مسائل الرسالة".

---

[١]- البحر العميق: كتاب رقم ١٠٠، وقال في مجلد: وقد اختصره في كتابه "نفث الروع" الآتي ذكره. وسبحة العقيق ص٣٨١، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٧، ومسامرة الصديق ص ٤٧ وقال: في عشر كراسات، وفقه الحافظ الغماري ص ٧٥.

[٢]- البحر العميق: كتاب رقم ٥٠، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٧، وتشنيف الأسماع ص ٨١، ومسامرة الصديق ص٤٧ وقال: طبع ببيروت، ومقدمة المداوي ص٨٩، وتراث المغاربة في الحديث ص٩٠. وقد طبع بالمطبعة المهدية بتطوان كما في مسامرة الصديق ص٤٧ الهامش. وطبع ضمن سلسلة "النوادر" بدار البصائر بدمشق سوريا سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م في ٣٢ ص من القطع المتوسط. وأصله مخطوطة بخط المؤلف بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٧٨٩د في ٩ ورقات.

[٣]- انظر تبيين البله ص ١٧.

[٤]- البحر العميق كتاب رقم ١١٩، ومقدمة تحقيق المداوي ص٩١.

[٥]- البحر العميق: كتاب رقم ١٨. وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٧، وتشنيف الأسماع ص ٨١، ومسامرة الصديق ص٤٨، ومقدمة المداوي ص٨٩، وتراث المغاربة في الحديث ص٩٨. وقد طبع بمطبعة دار التأليف بمصر دون تاريخ، في ٥٥ ص.

[٦]- البحر العميق: كتاب رقم ١٤. وسبحة العقيق ص٣٨١، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٧، ومعجم المطبوعات المغربية ص٢٠٦، وتشنيف الأسماع ص٨١، ومسامرة الصديق ص ٤٥ وقال: طبع بالقاهرة وبيروت واختصره بعضهم، ومقدمة المداوي ص٨٩. وقد طبع بالمطبعة المهدية بتطوان سنة ١٣٦٢هـ/١٩٤٢م في ٦٣ ص، ثم أعيد طبعه بتحقيق نظام ابن صالح اليعقوبي في دار هجر للطباعة بمصر سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م. وتوجد منه مخطوطة بخط المؤلف في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٧٩٢د في ٤٨ ورقة.

- تشنيف الآذان باستحباب ذكر السيادة عند اسمه عليه الصلاة والسلام في الأذان[٢].
- التنكيل والتقتيل لمن أباح التمثيل[٣].
- توجيه الأنظار إلى توحيد العالم الإسلامي في الصوم والإفطار[٤].
- الحسبة على من جوز صلاة الجمعة بلا خطبة[٥]
- رفع شأن المنصف السالك وقطع لسان المتعصب الهالك بإثبات سنية القبض في الصلاة على مذهب مالك[٦].
- شد الوطأة على منكر إمامة المرأة[٧].
- شمعة العنبر ببدعة آذان الجمعة على المنارة وعند المنبر، أو شن الغارة على بدعة الآذان عند المنبر وعلى المنارة[٨].

---

[١] – البحر العميق: كتاب رقم ٢٥ وقال: تم منه مجلد، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٨ وقال: تم منه جزءان، وتشنيف الأسماع ص ٨٢ وقال: في مجلد مخطوط، ومسامرة الصديق ص ٦٠ و٦١ وقال: ومنه نسخة بخط المصنف في مكتبة أحد إخوانه، ومقدمة المداوي ص٨٩، وتراث المغاربة في الحديث ص١٠١.

[٢] – البحر العميق: كتاب رقم ١٧، وسبحة العقيق ص٣٨١، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٨٧، وتشنيف الأسماع ص ٨١، ومسامرة الصديق ص٤٧، ومقدمة تحقيق المداوي ص٩١. وقد طبع بمطبعة السعادة بمصر دون تاريخ بتصحيح شقيقه سيدي عبد الله، في ٢١٢ ص. ومنه نسخة بخط المؤلف بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٨٧٦د في ٧٢ ورقة.

[٣] – طبع بتحقيق الأستاذ محمد الأزرق الأنجري بدار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م في ١١٢ص. وأفاد أن نصه يوجد كاملا في "جؤنة العطار" للمؤلف.

[٤] – البحر العميق: كتاب رقم ١٢٢. وجؤنة العطار ١٠٤/٣، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٨٧، وتشنيف الأسماع ص ٨١، ومقدمة المداوي ص٩١. وقد طبع بمطبعة العهد الجديد بالقاهرة في حياة المؤلف في ١٢٠ ص. وطبع بدار البيارق بعمان سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م

[٥] – حياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٩٠ وقال: مجلد ذكر فيه ستين دليلا على وجوب خطبة الجمعة، ومقدمة المداوي ص٩٢، وتشنيف الأسماع ص ٨٤. وقد طبع بالمطبعة المهدية بتطوان، المغرب سنة ١٣٩٦هـ في ١١٦ص، قدم له شقيقه سيدي عبد الله.

[٦] – وهو مقدمة لكتابه "المثنوني والبتار"، انظر البحر العميق: كتاب رقم ٧. وسبحة العقيق ص٣٨٠، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٨، وتشنيف الأسماع ص ٨٢، ومسامرة الصديق ص٤٣. وقد طبع في حياة المؤلف بالمطبعة المحمودية التجارية بالأزهر بمصر سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م في ٣٩ص من القطع الصغير.

[٧] – البحر العميق: كتاب رقم ٣٩. وسبحة العقيق ص٣٨١، وجؤنة العطار ١٦٩/١. وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٩١. وتشنيف الأسماع ص ٨٥ وقال: في جزء مخطوط ، ومسامرة الصديق ص ٤٥. ومقدمة تحقيق المداوي ص٩٤.

[٨] –حياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٨، وتشنيف الأسماع ص ٨٣ ، ومقدمة المداوي ص٩٤. وقد طبع بمطبعة العهد الجديد بمصر سنة ١٣٧٩هـ في ٣٩ ص.

- الصواعق المنزلة على من صحح حديث البسملة[١]، وهو رد على "الرحمة المرسلة" للشيخ عبدالحي الكتاني.
- الطرق المفصلة لحديث أنس في قراءة البسملة[٢].
- فصل القضاء في تقديم ركعتي الفجر على الصبح عند القضاء[٣].
- الكسملة بتحقيق الحق في أحاديث الجهر بالبسملة[٤]. المثنوني والبتار في نحر العنيد المعثار الطاعن فيما صح من السنن والآثار[٥]. مسالك الدلالة على مسائل الرسالة[٦]. المنح المطلوبة في استحباب

---

[١]- البحر العميق كتاب رقم ٤٧. وسبحة العقيق ص٣٨٠، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٨٩، وتشنيف الأسماع ص ٨٣ وقال: في جزء مخطوط، ومسامرة الصديق ص٤٣ باسم "الصواعق المنزلة على رسالة الرحمة المرسلة"، ومقدمة تحقيق المداوي ص٩٥. وللمؤلف رسائل حول هذا الحديث وهي: ("الاستعاذة والحسبلة"، و"الصواعق المنزلة"، و"الأقاويل المفصلة لبيان حال حديث الابتداء بالبسملة").

[٢]- البحر العميق كتاب رقم٩٨. وسبحة العقيق ص٣٨١، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٩، ومسامرة الصديق ص٤٥، وتراث المغاربة ص٤٥. وقد حققه الأستاذ يوسف الصمدي في إطار بحث الإجازة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان تحت إشراف الدكتور إدريس بن الضاوية. وبين يدي نسخة مخطوطة بخط المؤلف يوجد أصلها عند الشيخ سيدي محمد البقالي بطنجة وهو أحد كبار تلامذة المؤلف.

[٣]- البحر العميق كتاب رقم ١٦ وقال: طبع اتباعا في بعض الجرائد بتطوان، وهي جريدة "الأخبار". وسبحة العقيق ص٣٨١، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٨٩، ومسامرة الصديق ص٤٧، ومقدمة تحقيق المداوي ص٩٦. وقد طبع الكتاب بتحقيق عدنان زهار بدار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م مع رسالة أخرى للمؤلف "الاستعاضة" في ٧٣ص.

[٤]- سبحة العقيق ص٣٨١، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٩، ومقدمة تحقيق المداوي ص٩٦، وتشنيف الأسماع ص ٧٩، وتراث المغاربة ص٢٣٣.

[٥]- البحر العميق كتاب رقم٨، وسبحة العقيق ص٣٨٠ وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٩٠. و"من أعلام المغرب العربي في ق ١٤هـ" ص١٢١، وتشنيف الأسماع ص٨٥ وقال: في مجلدين طبع الأول فقط، ومسامرة الصديق ص٤ وص٦٦، ومقدمة المداوي ص ٩٩ وقال: طبع بمصر وهولندا، وتراث المغاربة ص٢٤٣. وقد طبع بالمطبعة الإسلامية بالأزهر، مصر سنة ١٣٥٢هـ، في ٣٥٦ص.

[٦]- البحر العميق كتاب رقم ٢٤. وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٩٠، و"من أعلام المغرب العربي في ق١٤هـ" ص١٢١، وتشنيف الأسماع ص ٨٤، ومسامرة الصديق ص٤٩ و ص٦١ وقال فيه: (كتاب فقه لم ينسج بين متأخري المالكية على منواله، تغلب عليه الصفة الحديثية فكان مصنفه مبدعا مجددا فيما كتب). وتراث المغاربة ص ٢٥٢، ومقدمة تحقيق المداوي ص٩٧. وقد طبع بدار العهد الجديد بمصر في حياة المؤلف سنة ١٣٧٤هـ.

رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة[١]، ألفه ردا على من يدعي أن رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات بدعة مذمومة.

- نفث الروع بأن الركعة لا تدرك بالركوع[٢]، وهو اختصار كتابه "بيان الحكم المشروع".
- هداية الرشد لتخريج أحاديث بداية ابن رشد[٣].

كما أن للمؤلف منثورات فقهية في كتبه الأخرى ذكرها عرضا. وبعض هذه المنثورات توجد برسائله إلى تلميذه السيد عبد الله التليدي المطبوعة[٤].

خاتمة:

من خلال ما تقدم يظهر لنا أن الحافظ أحمد بن الصديق الغماري –رحمه الله تعالى– كان له إسهام كبير في خدمة الفقه الإسلامي خلال القرن الرابع عشر الهجري، وتجلى ذلك في:

- كثرة تآليفه في هذا الفن.
- عنايته بمسائل فقهية متفرقة ومهمة كما لاحظنا في عناوين مصنفاته.
- أجوبته عن أسئلة فقهية كانت ترد عليه من والده وبعض شيوخه وتلاميذه.
- القدرة على استحضار النصوص الكثيرة في الاستدلال على المسألة الواحدة.
- الاجتهاد في كثير من القضايا الفقهية الخلافية مع قوة الترجيح بين الأدلة.

---

[١] – البحر العميق كتاب رقم ٥، وسبحة العقيق ص٣٨٠ وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص ٨٩، وتشنيف الأسماع ص ٨٤، ومسامرة الصديق ص٤٣ والموسوعة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله ١٣٥/٣، ومعجم المطبوعات المغربية ص٢٠٦ وقال: طبع على الحجر بفاس في ٣٠ صفحة. قلت: وطبع بتحقيق فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى ضمن ثلاث رسائل في استحباب الدعاء ورفع اليدين فيه بعد الصلوات المكتوبة، بدار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، في ١٦٣صفحة.

[٢] – البحر العميق كتاب رقم١٠١. وتشنيف الأسماع ص٨١ وقال: في جزء مطبوع، ومسامرة الصديق ص٤٧، ومقدمة المداوي ص٩٩، وتراث المغاربة ص ٢٩٠، وفقه الحافظ الغماري ص٧٥. وقد طبع بالمطبعة المهدية بتطوان سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م في ٥٩ص.

[٣] – البحر العميق كتاب رقم ٢٦. وسبحة العقيق ص٣٨١، وحياة الشيخ أحمد بن الصديق ص٩٠ وقال: وهو أحسن من التلخيص الحبير للحافظ بمراحل. وتشنيف الأسماع ص ٧٩، ومسامرة الصديق ص٦٢، ومقدمة المداوي ص٩٧، وتراث المغاربة ص٢٩٥. وقد طبع الكتاب بتحقيق يوسف المرعشلي وعدنان شلاق بدار عالم الكتب في بيروت سنة ١٤٠٨هـ في ٨ مجلدات. وهو في تخريج أحاديث كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لابن رشد الحفيد.

[٤] –در الغمام ص ١١٨-١٤٧

- رفض التقليد والعمل بالدليل.

هذه أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث في جهوده الفقهية، والباب مفتوح أمام الباحثين في العلوم الشرعية للوقوف على آرائه الفقهية واجتهاداته السديدة، ولا شك أنهم سيقفون على نتائج مهمة تكشف عن اهتمامه البالغ وعنايته الفائقة بالفقه الإسلامي كما سلف القول.

والحمد لله رب العالمين.

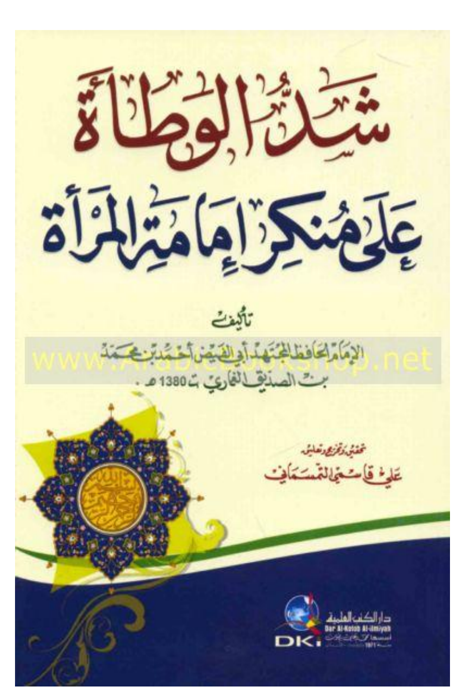
المصادر والمراجع

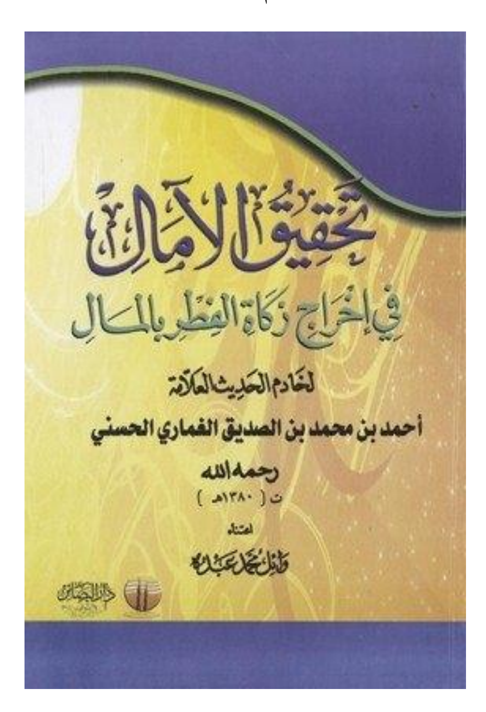
- إزالة الخطر عمن جمع بين الصلاتين في الحضر، للحافظ أحمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، مطبعة دار التأليف- مصر، ١٣٦٩هـ.
- إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين، لمحمد ابن الحاج الفاطمي السلمي(ت١٤١٢هـ)، تقديم الشيخ عبد الله كنون، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، الطبعة ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- بلوغ الأماني في التعريف بشيوخ وأسانيد مسند العصر الشيخ محمد ياسين بن محمد عيسى الفاداني المكي، جمع وترتيب محمد مختار الدين بن زين العابدين الفلمباني(ت١٤١١هـ)، دار قتيبة- دمشق، سورية/ بيروت، لبنان، ط(١)، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين (١٩٠٠م-١٩٧٢م)، للشيخ عبد الله الجراري(ت١٤٠١هـ)، مكتبة المعارف- الرباط، الطبعة ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- تبيين البله ممن أنكر وجود حديث "ومن لغا فلا جمعة له"، للحافظ أحمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، دار البصائر- دمشق، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.
- تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه، تأليف محمد بن عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية-بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- تزيين الألفاظ بتتميم ذيول تذكرة الحفاظ، للشيخ محمود سعيد ممدوح، دار البشائر الإسلامية- بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع أو إمتاع النظر ببعض أعيان القرن الرابع عشر، لأبي سليمان محمود سعيد بن محمد ممدوح، دار الشباب للطباعة- القاهرة، دون تاريخ.

- التصور والتصديق بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق، للحافظ أحمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، الناشر: علي رحمى، دار مرجان للطباعة-مصر، ط(٢)، دون تاريخ.
- تعريف المؤتسي بأحوال نفسي، للشيخ عبد العزيز بن الصديق الغماري(ت١٤١٧هـ)، مخطوط بمكتبة المؤلف.
- جؤنة العطار في طرف الفوائد والأخبار، للحافظ أحمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، مخطوط بخط الشيخ محمد بوخبزة التطواني بالخزانة العامة بتطوان تحت رقم (الجزالأول٨٦٣-الثاني٨٦٤-الثالث٨٦٥) ضمن مجموع.
- الحنين بوضع حديث الأنين للإمام أحمد بن الصديق الغماري (ت١٣٨٠هـ)، تحقيق أبي الفضل بدر العمراني -دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، ط(١) ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- حياة الشيخ أحمد بن الصديق، للشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي الجرفطي، المطبعة المهدية- تطوان، المغرب، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
- - خ -
- ذكريات من حياتي، لأبي الفتوح عبد الله بن عبد القادر التليدي، دار القلم- دمشق، ط(١)، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- رفع شأن المنصف السالك وقطع لسان المتعصب الهالك بإثبات سنية القبض في الصلاة على مذهب الإمام مالك، للحافظ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر- مصر، ١٣٢٥هـ/١٩٣٣م.
- سبحة العقيق، للحافظ أحمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم(١٨١٥د).
- سبل الهدى في إبطال حديث"اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا"، للحافظ أحمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، مطبعة دار التأليف- مصر، ١٣٦٩هـ.
- سبيل التوفيق في ترجمة عبد الله بن الصديق، للشيخ أبي الفضل عبد الله بن الصديق الغماري(ت١٣١٤هـ)، الدار البيضاء للطباعة- القاهرة، دون تاريخ.
- سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، للشيخ عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة(ت١٤٠٠هـ)، تحقيق د/محمد حجي، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط(١)، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- صدق اللهجة في أخبار أهل طنجة، للحافظ أحمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم(١٨٤٤د).
- عوارف المعارف، لأبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي (ت٦٣٢هـ)، ومعه غنية المعارف بتخريج أحاديث عوارف المعارف للحافظ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري (ت١٣٨٠هـ)، تحقيق الباحثان، أديب الكمداني، ومحمد محمود المصطفى، بمراجعة سيد المهدي أحمد، المكتبة المكية- مكة المكرمة، ط(١)، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- عواطف اللطائف من أحاديث عوارف المعارف، للحافظ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، ومعه تقدمته مسامرة الصديق ببعض أحوال أحمد الصديق، للشيخ محمود سعيد ممدوح، تحقيق الباحثان، أديب الكمداني، ومحمد محمود المصطفى، بمراجعة سيد المهدي أحمد، المكتبة المكية- مكة المكرمة، ط(١)، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الفتاوى والرسائل الصغرى المسماة در الغمام الرقيق برسائل السيد الشيخ أحمد بن الصديق، تنسيق وتخريج الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي، دار الأمان- الرباط، ط(١)، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- فتح العزيز في أسانيد السيد عبد العزيز، تخريج الشيخ محمود سعيد ممدوح، دار البصائر- دمشق ، الطبعة ١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي، للحافظ أحمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، تحقيق أحمد محمد مرسي النقشبندي، مكتبة القاهرة- القاهرة/ مصر، دون تاريخ.
- فقه الحافظ أحمد بن الصديق، لأبي محمد الحسن بن علي الكتاني، دار البيارق- عمان، الأردن، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- لب الأخبار المأثورة فيما يتعلق بيوم عاشوراء، للحافظ أحمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، مطبعة بن حيون- طنجة/ المغرب، ١٣٤١هـ.
- المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي، للحافظ أحمد بن محمد الصديق الغماري (ت١٣٨هـ)، دار الكتبي- مصر، ط(١)، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- معجم المطبوعات المغربية، لإدريس بن الماحي القيطوني الحسني(ت١٣٩١هـ)، تقديم الشيخ عبد الله كنون، مطابع سلا- سلا/المغرب، ١٩٨٨م.

- معجم المعاجم والمشيخات والفهارس والبرامج والأثبات، لد/يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مكتبة الرشد- الرياض، ط(١)،١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- المعجم الوجيز للمستجيز، للحافظ أحمد بن الصديق الغماري(ت١٣٨٠هـ)، مكتبة القاهرة- القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- من أعلام طنجة في العلم والأدب والسياسة، لذ/عبد الصمد العشاب، منشورات المجلس العلمي المحلي بطنجة- المغرب، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
- من أعلام المغرب العربي في القرن الرابع عشر ونبذة عن حركة العلماء الإسلامية بعد الاستقلال، تأليف الشيخ أبي هريرة عبد الرحمن بن محمد الباقر الكتاني(ت١٤٠١هـ)، جمع د/نور الهدى الكتاني، تحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، دار البيارق- عمان/الأردن، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، للدكتور عبد العزيز بن عبد الله، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية(معلمة المدن والقبائل)، للدكتور عبد العزيز بن عبد الله، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المغرب، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.





النظر الدقيق في اختصار وترتيب ترجمة الشيخ الحافظ العلامة عبد الله بن الصديق

الدكتور أبو اليسر رشيد كهوس
كلية أصول الدين بتطوان جامعة القرويين/المغرب

تقديم:

إن العلماء هم حماة الشريعة وحملتها، والقائمون بأمرها، والذابون عن حصونها، والداعون ليل نهار إليها؛ فهم الآخذون بيد الناس إلى طريق الرشاد، والمنتشلون لهم من مستنقعات الجهل، والمبينون لأسرار الدين، ومقاصد الشرع... لا يخلوا منهم زمان ولا مكان، وكلما قبض أحدهم خلفه آخر..

ومن هؤلاء الجبال الشوامخ، والدرر اللوامع، الشيخ الحافظ العلامة والمحدث الفهامة، والفقيه المدقق سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن الصديق الغماري -رحمه الله- (١٣٢٨-١٤١٣هـ/١٩١٠-١٩٩٣م)؛ الذي تخرج على يديه جم غفير من أهل العلم في المشرق الإسلامي وغربه، وما زالت تآليفه الفريدة وثماره اليانعة تطل بأنوارها على صفحات التاريخ.

إنه منارة من منارات طنجة -الملقبة بمدينة أهل الحديث- الذي بذل الغالي والنفيس في خدمة الحديث النبوي خصوصا والشريعة الإسلامية الغراء عموما.

ولله در القائل:

سقى الله أجداثا أجنَّت معاشرا ... لهم أبحر من كل علم زواخر

وفي هذا المقام أرتب وأهذب وأختصر من الكتاب النفيس الموسوم بـ:(**صديقيون، ريحانة طنجة سيدي محمد بن الصديق وأنجاله الأشقاء الخمسة الغماريون السادة: أحمد، عبد الله، محمد الزمزمي، عبد الحي، عبد العزيز رحمهم الله تعالى**): من تأليف الشيخ المختار محمد التمسماني، قدم له: محدث العصر الشيخ العلامة أبو الفتوح عبد الله التليدي، الناشران: مركز التراث المغاربي بالدار البيضاء، ودار ابن حزم ببيروت، ط١/١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م، في ٢٨٨ صفحة.

أهذب وأختصر من الكتاب المذكور: ترجمة الحافظ العلامة عبد الله بن الصديق رحمه الله؛ لنعيش لحظات ممتعة مع هذه المعلمة الفريدة، والجوهرة النفيسة التي يرصع بها تاج هذه الأمة المسلمة.

أولا- الشيخ الحافظ وسط جامعة القرويين بفاس:

ولج الفتى الفاضل رحمه الله جامعة القرويين عام ١٩٢٥م، وقضى فيها ثلاث سنوات في التحصيل المتواصل المجدّ على كبار شيوخها أمثال الأئمة:

-المحقق الفاضل صاحب الهمة العالية والصلاح والعلم الشيخ محمد بن الحاج (ت١٩٤٤م).

- القاضي العالم والمحقق المشارك والمفتي البارع الشيخ العباس بن أبي بكر بناني (١٨٨٣-١٩٧٢م).

- وشيخ الجماعة ورئيس المجلس العلمي فيلسوف الفقهاء، العلامة المحقق أحمد بن الجيلالي الأمغاري (ت١٩٣٥م).

- وشيخ الجماعة القاضي ورئيس المجلس العلمي الشيخ المحقق مولاي عبد الله الفضيلي (١٨٧٤-١٩٤٣م).

- وشيخ الجماعة القاضي الشيخ عبد الرحمن القرشي (١٨٨٥-١٩٣٩م).

- والعلامة المشارك الشيخ المحقق الحسين العراقي الكربلائي (ت١٩٣٤م).

- والعلامة المشارك المتخصص في علم الفرائض الشيخ محمد أبو الشتاء الصنهاجي (ت١٩٤٥م).

- والعلامة الفاضل المفتي المدقق الشيخ أحمد بن الطيب القادري.

- والعلامة الورع الشيخ محمد الرضى السناني (ت١٩٦٥م).

- والعلامة المحدث المؤرخ الإمام محمد بن جعفر الكتاني (١٨٥٧-١٩٢٧م).

على هؤلاء الجهابذة وغيرهم حضر وتتلمذ، وفي حلقاتهم ومجالسهم درس علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والمقولات.. فأجازوه وقد أعجبوا به..

ثانيا- الشيخ الحافظ بعد رجوعه إلى طنجة:

وبعد قفول الفتى العالم من عاصمة العلم فاس إلى طنجة بذل قصارى جهده، وأخلى طوقه للبحث والتنقيب، والمراجعة، والتدقيق وسبر أغوار تلك العلوم التي كان -قبل التحاقه بالقرويين قد نَحَّبَ على حفظ متونها كأجرومية ابن أجروم الصنهاجي، وألفية ابن مالك الأندلسي في النحو والصرف ومختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي، وبلوغ المرام للحافظ ابن حجر العسقلاني، والجوهر المكنون للأخضري، وجمع الجوامع للإمام السيوطي، والأربعين النووية، بالإضافة إلى مورد الظمآن، ومقامات الحريري..

هكذا غاص الشيخ الحافظ بقوة في دخائل تلك العلوم، وتوغل مفككا لألغازها، مستخرجا دفائنها، مبينا لغوامضها، متذوقا طعومها؛ فنبعت فيه ملكة الفهم والإدراك، وملكة التدبر والتبصر، ورزق النظر الثاقب، وحضور الدليل، وطول النفس..

وواظب الفتى العالم على حضور دروس والده الإمام في صحيح الإمام البخاري ورسالة القيرواني، وفي نفسه تطلع ورغبة وتشوق إلى الأزهر بعد أن منعه والده العلامة من الذهاب لما رأى من حرصه الشديد وقال له قولته المشهورة:"**أحب أن تذهب إلى الأزهر عالما يحتاج إليك علماء مصر**..".

ثالثا- التحاق الفتى العالم بجامعة الأزهر:

وفي عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م تحققت أمنية الفتى العالم.. ورحل إلى مصر، وانتظم هو وشقيقه الفتى سيدي محمد الزمزمي إلى الأزهر.. وفي رحاب هذه الجامعة تلقى دروس كبار شيوخها وأئمتها.. منهم:

- الإمام العلامة والمحدث الفهامة والفقيه البارع الشيخ المشارك أحمد بن الصديق (١٣٢٠-١٣٨٠هـ/١٩٠١-١٩٦٠م).
- مفتي الديار المصرية وشيخ علمائها العلامة محمد بخيت المطيعي (١٨٤٥-١٩٣٥م).
- العلامة المحقق أول من اختير عضوا في هيئة كبار العلماء، وكيل الأزهر، مدرس الفقه والأصول والمنطق والفلك الشيخ محمد حسنين مخلوف (١٨٦٠-١٩٣٦م).
- مسنِد الديار المصرية العالم المحقق في علوم الآلة والفقه الشيخ أحمد رافع الطهطاوي (١٨٥٨-١٩٣٦م).
- العلامة والفقيه البحاثة محمد إمام المنصوري وقد أعجب به كثيرا الفتى العالم.
- العلامة الخطيب الفقيه البارع زبدة علماء الأزهر الشافعي محمد إمام السقا (١٨٦٦-١٩٣٥).
- العلامة متقن الفقه الشافعي الشيخ عبد المجيد الشرقاوي.

وغيرهم كالشيخ محمد عزت، ومحمد السمالوطي، وحامد جاد، وعبد القادر الونتاني..

ولم تمض غير سنتين من القراءة في الأزهر حتى بذَّ أقرانه، وبان شأوه عليهم، وذاع سيطه، فأوعز إليه في أن يتقدم لامتحان شهادة العالمية الخاصة بالغرباء. وكان الاختبار فيه يتضمن اثنتي عشرة مادة علمية هي: النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق والأصول والتوحيد والفقه والتفسير والحديث والمصطلح.. فاجتازه بتفوق وعمره في بادئة الثلاثة والعشرين.

وشرع في التدريس، فكان أول عالم بالأزهر درَّس (شرح المكودي) على ألفية ابن مالك، كما درس (الجوهر المكنون) في البلاغة، و(السلم) في المنطق بشرح البناني، و(سلم الوصول إلى علم الأصول) لابن

أبي الحاجب، وتفسير النسفي والبيضاوي، و(الإحكام في أصول الأحكام) للآمدي، و(الخبيص) على تهذيب السعد في المنطق، و(جمع الجوامع) بالرواق العباسي بين العشاءين وختمه في أربع سنوات.. بالإضافة إلى تدريسه علوم الحديث والفقه.

وانتظم من حوله طلبة من كل أرجاء المعمورة عرب وعجم: من أندونيسيا، والهند، وتركيا، ويوغوسلافيا، ورومانيا، وألبانيا، والشام، والحجاز، واليمن، والصومال، والسودان، وشمال إفريقيا وغيرها..

وفي سنة ١٩٤٢م تقدم لنيل شهادة العالمية بعد عقبات اقتحمها وخاض غمار الامتحان فكان من الفائزين الستة من مجموع ٢٨٢ مرشحا.

يقول الشيخ الحافظ :(.. وصادف أنني كنت في زيارة الشيخ شلتوت في بيته ومعه جماعة من العلماء لأنه كان وكيلا لكلية الشريعة.. ودخل أحد الزائرين فهنأني، فقال له الشيخ شلتوت: علام تهنئه؟ فقال: لأنه نال الشهادة العالمية الأزهرية واسمه في جريدة "الأهرام".. فقال له الشيخ شلتوت: نحن نهنئ الشهادة الأزهرية بأخذ الشيخ عبد الله لها الذي جاء من بلاده عالما !).

رابعا- الفتى العالم يناقش فحول العلماء:

لقد أبهر الفتى العالم أقرانه، وانبرى لكبار العلماء في مسائل فقهية معقدة استعصت على كبار شيوخ العلم، وها هو الفتى العالم يناقش الشيخ شلتوت في مسألة التداوي بالقرآن التي اعتبرها الشيخ شلتوت ضربا من الدجل، ويرد عليه الفتى العالم في كتابه الموسوم ب:"**كمال الإيمان في التداوي بالقرآن**"فسكت الجميع لما رأى من أدلة شرعية قدمها في الكتاب المذكور خفيت عن كبار أهل العلم.

وانبرى له مرة أخرى لما وجه الشيخ شلتوت رحمه الله وجهه شطر شبهة توحيد الأديان، ونشر مقاله على صفحات جريدة "صوت أمريكا" وقال بأن الإيمان المنجي يوم القيامة هو الإيمان بالله واليوم الآخر، وأن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ليس بواجب، وزعم أن اليهود والنصارى ناجون يوم القيامة لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر كالمسلمين ! ! فتصدى له الشيخ العالم ودحض تلك الدعوى بالأدلة الشرعية وألف في ذلك جزءا أسماه ب:"**التحقيق الباهر في معنى الإيمان بالله واليوم الآخر**"، وبين البراهين اللوامع، وعجز الشيخ شلتوت عن الرد وأطبق.

وإذا برسالة الزيات يتصدرها مقال الشيخ شلتوت يؤيد اعتقاد القاديانية بأن سيدنا عيسى عليه السلام قد قضى عليه الموت ورفع من هذه الدنيا وما كان من الراجعين ! ! وتصدى لها الشيخ الحافظ

كذلك كما تصدى للشبه السابقة وألف في ذلك كتابا سماه ب:"**عقيدة أهل الإسلام في نزول عيسى عليه السلام**"، وقصد بيت الشيخ شلتوت وقدمه إليه.. فتكسرت قواريره، وانقطع، ولم يعقب!

هذه المعركة العلمية الفريدة التي خاض غمارها مع الشيخ شلتوت أبدت لمن ألقى إليها السمع، أو قرأ تفاصيلها على صفحات المجلات والكتب، شخصية علمية متميزة بين حملة العلم وأصحاب الأقلام.. شخصية تخاطب العقل فتقنعه، وتُطَمْئِن النفس والقلب وقد نزعت منها ظلال الريب ومخاتلة الشبهات.. شخصية تفرق بوضوح بين الصواب والخطأ بين الوهم واليقين وقد اتخذت الحق عاصما لها من التردي والارتكاس في زهو "المشيخة"، أو في هوى التبجُّح بالغلبة وإن على أنقاض الباطل!. شخصية ذات مَصدق، تُسدد الأدلة تلو الأدلة لبيان صولة هذا الحق مهما تطاولت على نوره أكواد الظلمات!. شخصية تبين كيفية التعامل مع النصوص الشرعية، وكيفية الاستمداد منها والاستضاءة بنورها بالفهم العميق، والنظر الثقيب، والرأي الحصيف.

وكما تصدى الشيخ الحافظ العالم للشيخ شلتوت تصدى كذلك للمفكر الإسلامي وداعية التجديد الديني والإصلاح الاجتماعي الدكتور محمد البهي (١٩٠٥-١٩٨٣م) الذي زعم أن دليل إرسال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجن دليل ظني لا يقوم على اليقين! ! فرد عليه الشيخ الحافظ العالم في جزء سماه:"**قرة العين بأدلة إرسال النبي إلى الثقلين**"؛ بين فيه قطعية بعثته صلى الله عليه وسلم إلى الجن بالقرآن والسنة المتواترة وإجماع الأمة، وكشف سر هذه الدعوى التي تمهد لدعوى تبشيرية استشراقية أخرى وهي أنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى العرب خاصة لأنه إذا انتفى القطع بعموم رسالته إلى الثقلين وجب التمسك بالمتيقَّن المقطوع به وهو رسالته إلى قومه دون غيرهم.. ! ! فدحض الدعوى ونقض الشبهة.

كما ناقش الشيخ الحافظ الجليل العلامة الشيخ البحاثة المؤرخ المحقق محمد أبو زهرة رحمه الله (١٨٩٨-١٩٧٤م)، وألف في ذلك كتابا سماه:"**الرؤيا في الكتاب والسنة**"، وناقش الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- في معارك في "جواز التوسل بالأنبياء والأولياء" وقراءة القرآن على الميت وفي مواضيع حديثية متنوعة. وكتب في ذلك كتبا منها:"**إرغام المبتدع الغبي بجواز التوسل بالنبي**" و"**القول المقنع في الرد على الألباني المبتدع**".

هكذا كان الشيخ الحافظ العلامة راسخ القدم في عدة علوم، ومنقطع النظير، جمع فيه ما تفرق في غيره، هو: حافظ، أصولي، نحوي، فقيه، مفسر، منطقي، بليغ.. مشارك ضليع، بحاثة محقق، ناقد بصير.. وكأنه يتحدث عن نفسه ويقول:

جمعــــت علومــــا عـــــدة وفوائــــد أتيــتُ بهــا مــن فـيض بـاري الخلائــق

وأرجـــو بهـــا تجديــد ديــن محمــد فحقــق رجـــائي يـــا إلهـــي ووفــقِ

لقد صنف، وعلق، وحقق، وخرَّج، وراسل، وحاضر، ودرس، وأفتى..

خامسا- غزارة التأليف:

ألف الحافظ العلامة كتبا قيمة في غاية التحرير، وقد جاوزت الثمانين مؤلفا بين كتاب وجزء ورسالة. وهي في أصناف فنونها كأزهار الحديقة تختلف أشكالا وألوانا وعبيرا.. أغلبها ردود.. من سايرها تراءى له الشيخ الحافظ رجلا قلمه بالمرصاد لكل فكر مهوس شتيت يريد المساس بثوابت إسلامية.. قلمه يُخرس كل مدع يجبح بما يمليه عليه هواه في نزق ومغالطة.. ومن هذه المؤلفات الكثير النافعة نذكر:

- فضائل القرآن.
- تفسير القرآن الكريم (لم يتم).
- الرد المحكم المتين على القول المبين.
- إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بسيد الأنبياء.
- سمير الصالحين.
- خواطر دينية.
- مصباح الزجاجة في صلاة الحاجة.
- نهاية الآمال في شرح وتصحيح حديث عرض الأعمال.
- الحجج البينات في إثبات الكرامات.
- واضح البرهان على تحريم الخمر في القرآن.
- دلالة القرآن المبين على أن النبي أفضل العالمين.
- إعلام النبيل بجواز التقبيل.
- توضيح البيان لوصول ثواب القرآن.
- الكنز الثمين في أحاديث النبي الأمين.
- الفتح المبين بشرح الكنز الثمين.

- الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام.
- الإحسان في تعقب الإتقان في علوم القرآن.
- التوقي والاستنزاه عن خطأ البناني في معنى الإله.
- المهدي المنتظر.
- إعلام النبيه بسبب براءة إبراهيم من أبيه.
- الصبح السافر في تحرير صلاة المسافر.
- الرأي القويم في وجوب إتمام المسافر خلف المقيم.
- إتقان الصنعة في بيان معنى البدعة.
- رفع الشك والارتياب عن تحريم نساء أهل الكتاب.
- ذوق الحلاوة بامتناع نسخ التلاوة.
- أجوبة هامة في الطب.
- الفتاوى.
- توجيه العناية بتعريف الحديث رواية ودراية.
- كيف تكون محدثا.
- بدع التفاسير.
- حسن التفهم والدرك لمسألة الترك.
- السيف البتار لمن سب النبي المختار.
- جواهر البيان في تناسب سور القرآن.

ومن تعليقاته وتحقيقاته التي فاقت العشرين نذكر:

- تعليق على "المقاصد الحسنة" للسخاوي.
- تعليق على "الحبائك في أخبار الملائك" للسيوطي.
- تعليق على كتاب "الإرشاد" لابن عساكر في الفقه المالكي.
- تعليق على شرح الأمير على مختصر خليل.
- تعليق على رسالة ابن الصلاح في وصل البلاغات الأربعة.
- تعليق على مساند أبي بكر وعمر وعثمان للسيوطي.
- تعليق على "تنبيه الفكر في الجهر بالذكر" للسيوطي.

- تعليق على "بادية السول في تفضيل الرسول" للعز بن عبد السلام.
- "أسباب الخلاص في الأوهام الواقعة في تحقيق كلمة الإخلاص"
- تحقيق الجزء السابع من "التمهيد" لابن عبد البر.

ومن تخريجاته:

- "الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج".
- تخريج أحاديث اللمع في أصول الفقه.

فكتبه جمة الفوائد، غزيرة المادة، تستوعب أصول الفنون التشريعية وفروعها بمهارة وعناية وذكاء.

سادسا– ابتلاء العلماء العاملين:

إن الابتلاء سنة من سنن الله في الدعوات، فكما يبتلى الأنبياء والرسل يبتلى كذلك من سار على منهاجهم المستقيم، واقتفى أثرهم، وتمسك بسنتهم.

فلم يسلم الشيخ الحافظ العلامة والمحدث البحاثة عبد الله بن الصديق من جور الرئيس عبد الناصر، فهو كذلك ممن اكتوى بنار بلائه "الأحمر" الذي صبه على خيرة العلماء العاملين زبدة هذه الأمة! نعم قضى الشيخ الحافظ العلامة في الزنزانة ١١ سنة حُسوما من ١٥ دجنبر ١٩٥٩ إلى ٢٦ دجنبر ١٩٦٩! وكان على وشك الإعدام لولا أن تداركه لطف الله!

سابعا– نشاطه الخارجي:

كتب الشيخ الحافظ العلامة في مجلة "الإسلام" بمنهجية متميزة جال فيها مع الحديث النبوي رواية ودراية، ومع فقه السنة من خلال الفتاوى في قضايا تحتك بالناس، ومشاكلهم، واهتماماتهم الدينية. وكانت له على صفحاتها ردود ومناقشات علمية مثيرة حتى عرف بمحدث المجلة!

وكانت له أيضا إسهامات في المجلات الآتية: "الإرشاد"، و"هدي الإسلام"، و"الرابطة الإسلامية"، و"الشرق العربي"، و"الوسيلة"، و"المسلم"، و"نور الإسلام" التي تصدرها مشيخة الأزهر برئاسة العلامة الشيخ محمد الخضر التونسي.

هذا إضافة إلى صلاته الوثيقة ونشاطاته المكثفة مع العديد من الجمعيات التي كان يحاضر ويشارك في ندواتها وملتقياتها العلمية:

- جماعة الإخوان المسلمين، وكانت بينه وبين مرشدها الإمام حسن البنا ووالده الشيخ أحمد عبد الرحمن صداقة متينة.

- جماعة أنصار السلف الصالح (تقلد رئاستها).
- جماعة أنصار الحج (عمل وكيلا لها).
- جمعية العشيرة المحمدية (كان عضوا بارزا فيها).
- جمعية الهداية الإسلامية.
- جمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية.
- جماعة الرابطة الإسلامية.
- جماعة النساء المسلمات.
- جمعية زينب الغزالي النسوية.

ثامنا- مكانته العلمية:

أضف إلى ذلك أنه نال احترام كبار العلماء وثنائهم وتقديرهم أمثال شيخ الأزهر العلامة محمود شلتوت والعلامة الديار المصرية ومفتيها الأكبر محمد بخيت، والقاضي الشيخ العباس بناني من كبار علماء القرويين، والعلامة عبد الفتاح أبو غدة، والشيخ محمود شويل إمام المسجد النبوي بالمدينة المنورة..

لكنه رحمه الله ما اغتر قط بهذه المكانة العلمية السامقة، وذلك الثناء والتقدير، وما كان من عشاق الشهرة، ولا من خطاب السيادة والمشيخة، ولا من اللاصقين بالكراسي والمناصب.. هو كريم الشيم، نبيل، سمح، شريف الطبع، نقي السريرة، خافض الجناح.. فيه أخلاق الفتوة الصوفية، يحمد الله على السراء، ويصبر على الضراء.. فيه ورع حتى في علمه.. فيه إخلاص وصدق وحياء.. إنه -بحق- أبو تراب: وصف يطلقه عليه في محبة وإكبار شقيقه الشيخ العلامة سيدي عبد الحي.. لذا اجتمعت عليه القلوب، وصفت له، فأُوتي محابًّا وجلالها حتى أصبح لكل عين حبيبا!

وجال الشيخ الحافظ العلامة -رحمه الله- في بلاد الله شرقا وغربا.. حج عدة مرات، أولها وهو صبي يحبو، فحُج به.. وزار دول الخليج العربي، والأردن، والسودان، وبلدان الغرب الإسلامي.. وذهب إلى أوروبا، وسافر مرتين إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أقام فترة في بيت الملاكم الشهير محمد علي كلاي بشيكاغو.

تاسعا- وحان وقت الرحيل:

عاد الشيخ الحافظ الجليل إلى وطنه إلى طنجة المحروسة في ١٠ يناير ١٩٧١ بعد غياب دام ٤٠ سنة، وكان يوما مشهودا.

وبدأ مرحلة جديدة من حياته بين قومه.. فذاق الحلو والمر، واليسر والعسر.. وصنف، ودرس، وخطب.. فأثار حركة علمية مباركة لم يسبق لها مثيل..

واعترته علة، فتبلغت به، فثقل..

وفي يوم ١٢ فبراير ١٩٩٣م أفضى إلى ربه.. فودعه آلاف المواطنين في جنازة رهيبة تأخذ بالأفئدة، وصلي عليه ظهرا بالمسجد الأعظم، ودفن بالزاوية الصديقية بجوار والديه.. تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه وبوأه فسيح جنانه.. آمين.

مسك الختام:

وبعد؛ فهذه لمحات سريعة، وزورة خاطفة ونثارات عن حياة الشيخ العلامة والمحدث الفهامة والفقيه البحاثة الحافظ أبي الفضل سيدي عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري.. الذي وهب كل حياته لخدمة العلم وطلابه، وللقيام لله بالقسط، فقد كان رحمه الله بالحق ظاهرا ولا يخاف في الله لومة لائم.

لمحات لم تف بحق شخصية هذا الإمام العلامة الذي شيد المباني بالحجج البينات والأدلة الراجحة.. وقر العيون بجواهر البيان.. وأوضح البيان بنفحات مسكية عنبرية ربانية أزالت اللبس والغبش، وبينت حقائق الأمور، ودفعت الجهل والشك والارتياب...

حقا كانت هذه المعلمة كنزا ثمينا بين قومه وهم عنه غافلون! وحق لنا أن نفخر به:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم　　　إذا جمعتنا يا جرير المجامع

هكذا وقد فقدنا كثيرا كثيرا من العلوم النافعة والفوائد الجمة التي ذهبت بذهاب أهلها ورزئنا بغياب جمهرة من علمائنا الجلة رحمهم الله تعالى وأمطر عليهم شآبيب الرحمة والرضوان.

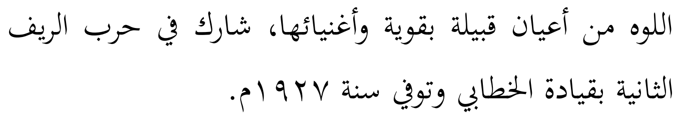
الشيخ العلامة العربي الّلوه

١٣٢٣-١٤٠٨هـ/ ١٩٠٥-١٩٨٨م

الدكتور توفيق أحمد الغلبزوري

رئيس المجلس العلمي المحلي بعمالة المضيق الفنيدق ومنسق ماستر الفكر الإسلامي والحضارة بكلية أصول الدين بتطوان جامعة القرويين/المغرب

هو الأستاذ العربي ابن الحاج علي الشهير باللوه بن عمر بن زيان بن حَمُّو العمارتي[1]، أبوه علي اللوه من أعيان قبيلة بقوية وأغنيائها، شارك في حرب الريف الثانية بقيادة الخطابي وتوفي سنة ١٩٢٧م.



ازداد سنة ١٣٢٣ هـ الموافق ل ١٩٠٥م، بقرية تيغنمين من قبيلة بقوية المجاورة لمدينة الحسيمة، والممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، حيث تربى في كنف والدته الحاجة عائشة بنت الحاج محمد التسولي وتحت رعايتها.

وعلى عادة أقرانه في تلك الفترة، تردد على كُتَّاب قريته

---

[1] انظر ترجمته في:

. (أعلام المغرب العربي) الجزء الأول، لعبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٩، ص: ١٥.

. (إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين) لمحمد بن الفاطمي السلمي الشهير بابن الحاج، الطبعة الأولى ١٩٩٢، ص: ٤٦٩ – ٤٧١.

. مقال (العربي ابن الحاج اللوه) لفؤاد الغلبزوري، جريدة تيفرازن أريف، العدد ١٣، ماي ٢٠٠٤.

. مقال (العلامة المناضل العربي اللوه) لعبد الصمد العشاب، جريدة "الشمال" عدد ٣٧٤ / ٢٨ نونبر إلى٤ دجنبر ٢٠٠٦.

. وترجمة مختصرة في الواجهة الخلفية لكتبه، في طبعاتها الأخيرة (أصول الفقه) و(الرائد في علم العقائد) و(المنطق التطبيقي).

. وترجمة وافية في كتابه (المنهال في كفاح أبطال الشمال)، مطبعة الشويخ ديسبريس، تطوان، الطبعة الأولى ١٩٨٢، من ص٣٥٥ إلى ص٣٦٠.

– كنت نقلت عن بعض المصادر أن رئيس الحكومة هو الفقيه محمد بن عزوز، ولكن لما قرأ الترجمة على عجل الأستاذ أبو بكر بنونة – حفظه الله وأطال في عمره–، صحح أنه أحمد الغنمية وأما ابن عزوز في هذا التاريخ فكان قد توفي – رحمه الله– وكان ذلك بحضور نجل المترجم له صديقنا الدكتور الطبيب علي اللوه، ونحن في عيادة للشيخ إسماعيل الخطيب ببيته –رحمه الله تعالى برحمته الواسعة– وذلك مساء يوم السبت ٠٦ شعبان ١٤٣٤ هجرية ١٥ يونيو ٢٠١٣م .

(رمسيذ) فتمكن من مبادئ الكتابة والقراءة وحفظ القرآن الكريم وبعض المتون العلمية، ولما أصبح يافعا تاقت نفسه إلى تلقي المزيد من العلوم، فقصد بعد انتصارات أنوال الباهرة بنحو شهرين، قرية سيدي بوسياف من قبيلة بني خالد الغمارية، حيث تلقى فيها على يد الشيخ السي بلحاج مدة سبعة أشهر، مبادئ العلوم الدينية والعربية وبعض علوم القراءات، ثم يمم وجهه شطر قرية الشوبية بقبيلة وادراس بمنطقة جبالة، فلازم هناك لمدة سنتين الشيخ الفقيه محمد بوتفاح، الذي أخذ عنه علوم العقائد والفقه والفرائض والنحو والصرف، وبعد ذلك شد الرحال إلى قرية الجبيلة الواقعة بجبل حبيب من نواحي طنجة، حيث لازم الشيخ المشهور محمد الأندلسي، إلى أن توقفت الدراسة بسبب اندلاع حرب الريف التحريرية بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي، وامتداد شرارة هذه الثورة الوطنية إلى القبائل الجبلية.

أراد الالتحاق بجامعة القرويين بفاس التي كانت قبلة العلماء ومهوى أفئدة الطلبة من كل الأصقاع، لكن الحصار البري والبحري المضروب على المنطقة من قبل الاستعماريْن الفرنسي والإسباني، والمنع الذي أصدره ابن عبد الكريم للريفيين بعدم الهجرة تفاديا لإفراغ المنطقة من رجالها وحماتها،حالا دون تحقيق رغبته الجامحة في إكمال دراسته، غير أنه استطاع بمشقة الأنفس التسلل إلى الجزائر (ركزاية) عبر وجدة، رفقة مجموعة من العمال الريفيين الذين كانوا يشتغلون بضيعات المعمرين الفرنسيين، مغيرا اسمه إلى محمد بدر الدين بن عبد الله المغربي من مدينة طنجة، ومن هناك أكمل طريقه (بدون جواز السفر ولا حتى بطاقة التعريف) إلى تونس العاصمة التي وصلها سنة ١٣٤٢ هـ ١٩٢٣م حيث انخرط مباشرة. بعد قبوله في الامتحان من قبل النظارة العلمية . بجامع الزيتونة الشهير، الذي كان علماؤه يعقدون مجالسهم العلمية بالجامع الأعظم بالعاصمة في علوم شتى، منها علوم العقائد والفرائض والمنطق والنحو والبلاغة والتاريخ والجغرافية، وكذا مبادئ الهندسة والحساب وأدب البحث والمناظرة وغيرها من العلوم، فدرس هناك على جلة العلماء وكبار الشيوخ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والعلامة محمد الصادق النيفر والشيخ السيد صالح المالقي، والشيخ محمد الشاذلي الجزيري والشيخ عثمان ابن الخوجة والشيخ بلحسن بن محمد النجار وغيرهم كثير.

وقد تخرج من الجامعة المذكورة سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩م بحصوله على شهادة العالمية(التطويع)؛ مذيلة بإمضاء الشيوخ أحمد بيرم ومحمد الطاهر ابن عاشور ومحمد رضوان وصالح المالقي، كما أجازه في الرواية الشيخان بلحسن النجار والبشير النيفر، غير أنه مكث هناك سنة إضافية للاستزادة من أنوار المعرفة وحضور ندوات مشايخ الزيتونة ونبغائها، إلى أن التحقت به والدته الحاجة عائشة سنة ١٣٤٩هـ ١٩٣٠م، قادمة من الديار المقدسة بعد أدائها فريضة الحج فعادا معا إلى المغرب.

بعد رجوعه إلى الريف شرع في ممارسة التطبيقات الفقهية والنوازل القضائية، بإشراف وتوجيه من العالم الكبير في فقه النوازل المرحوم علي الخمليشي، بيد إنه سيعين في ١٥ يونيو١٩٣١م قاضيا لقبيلة بني يدر الجبلية، ثم نائبا لمدير الأحباس بالناظور في ١٠ دجنبر١٩٣٢، ثم مستشارا شرعيا بنيابة الأمور الوطنية بمدينة تيطاوين سنة ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥م، وفي نفس السنة كذلك عين رئيسا لكتابة الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) في الحكومة الخليفية، التي كان يترأسها الفقيه أحمد الغنمية٢، فكاتبا عاما للصدارة بتاريخ ٢٣ غشت ١٩٥٢م، ثم عين وزيرا للأحباس بالحكومة الخليفية بمنطقة الشمال في ٢٨دجنبر ١٩٥٤، دون أن ننسى توليه لفترة طويلة وبصفة مؤقتة إدارة شؤون مكتب رئيس المحكمة العليا للعدلية المخزنية بنفس المدينة.

أما المناصب العلمية التي تبوأها العربي اللوه في سلك التربية والتعليم، فنشير إلى تعيينه مدرسا بالمعهد الديني الثانوي منذ سنة ١٩٣٥، وهي نفس السنة تقريبا التي التحق فيها متَرْجَمُنا بَلَدِيُّهُ الشيخ محمد حدو أمزيان بهذا المعهد متتلمذا عليه، ثم صار العلامة اللوه أستاذا بالمعهد الديني العالي في ١٠ فبراير ١٩٤٥، فأستاذا جامعيا بكلية أصول الدين التابعة لجامعة القرويين، فضلا عن مزاولته لمهنة الفتوى بالريف (الحسيمة والناظور) وتطوان.

وعوْدا على بدء نشير إلى سيرة العلامة العربي الجهادية النضالية ضد المستعمر فنقول: إنه أثناء حرب الريف التحريرية في عشرينيات القرن المنصرم، كان للعربي اللوه إسهام كبير في دعم حركة الجهاد في الريف، حيث كان يقوم بدور الوساطة بين زعماء القبائل الجبلية (بني منصور، وادراس، بني يدر، جبل حبيب...) لتحريضهم ضد الإسبان، وبين أخيه عبد الكريم المستقر بطنجة، والذي كان يزود المقاتلين بالمال والسلاح، وكان مشهورا في طنجة والمغرب بل حتى في الجزائر بقيامه بأدوار سياسية هامة لصالح الثورة الريفية، ولم يكتف العربي اللوه بهذا حسب ما جاء في بعض المصادر، بل حمل السلاح في وجه المستعمر الإسباني وقاوم إلى جانب إخوانه، وهذا مايظهر لنا من مشاركته في الحملة التطوعية التي أرسلها رئيس زاوية اسنادة ببني يطفت الشريف احميدو الوزاني، إلى الجهة الغربية من الشمال لمساندة المجاهدين.

ولما عزل محمد الخامس عن عرشه ونفي يوم ٢٠ غشت ١٩٥٣، ونصب مكانه محمد بن عرفة، لم تعترف به الحكومة الخليفية التي كان مقرها بمدينة تيطاوين، بقيادة مولاي المهدي بن اسماعيل خليفة صاحب الجلالة على منطقتي الشمال وإفني، والتي كان العربي اللوه يشغل بها منصب وزير الأحباس، واستطاع رفقة زملائه في الحكومة الخليفية أن يغير من توجهات السياسة الإسبانية لصالح المغرب، والاعتراض على ما فعلته السلطات الاستعمارية الفرنسية، تُوج هذا الدور المهم بتحرير عريضة ممهورة

بتوقيعات من قبل وزراء حكومة الشمال فضلا عن العلماء والأشراف والتجار، والقضاة والأعيان والقواد والباشوات من رجال شمال المغرب، وجهت للمندوب السامي الإسباني بالمغرب دون رفائيل غارسيا بالينيو، الذي ألقى خطابا بساحة سانية الرمل بتطوان في فبراير سنة ١٩٥٤م، انتقد فيه بشدة السياسة الفرنسية بما فيها نفي الملك محمد الخامس؛ واستكمالا لمسيرته النضالية هاته، ومع إيمانه العميق "...بأن التحزب أو الحزبية ماهي إلا من أعضل المعضلات التي تمزق الشعوب وتشتت كيانها وتبدد أوصالها..." فقد شارك بعد استقلال المغرب في أول انتخابات برلمانية أجريت سنة ١٩٦٣ وفاز فيها.


المختار السوسي إبراهيم الإلغي العربي اللوه

ومع كون العلامة الأستاذ العربي اللوه عاش ٨٣ سنة، غير أنه لم يبدأ في تدبيج مؤلفاته إلا في وقت متأخر من حياته، حيث أصدر أول كتبه وهو في السبعين من عمره، وقد يكون هذا راجعا بالدرجة الأولى إلى كثرة انشغالاته، ومدى جسامة المسؤوليات التي تحملها طيلة حياته، لذلك ترك لنا أربعة مؤلفات فقط قام بطبعها على حسابه الخاص، نوردها كما يلي:

١ . (أصول الفقه) وهو كتاب في فلسفة وأصول التشريع الإسلامي انتهى من تأليفه ١٩٦٨، أولى طبعاته كانت بتطوان سنة ١٩٧٠ بعد أن روجعت ثلاث مرات سنة ١٩٦٩، والثانية بتطوان كذلك عن

مطابع الشويخ ديسبريس سنة ١٩٨٤، بينما الثالثة كانت سنة ٢٠٠٧ عن مطبعة الخليج العربي بتطوان، وكثير من الباحثين في هذا العلم لا يستغنون عن هذا الكتاب الذي أجاد فيه المؤلف وأفاد.

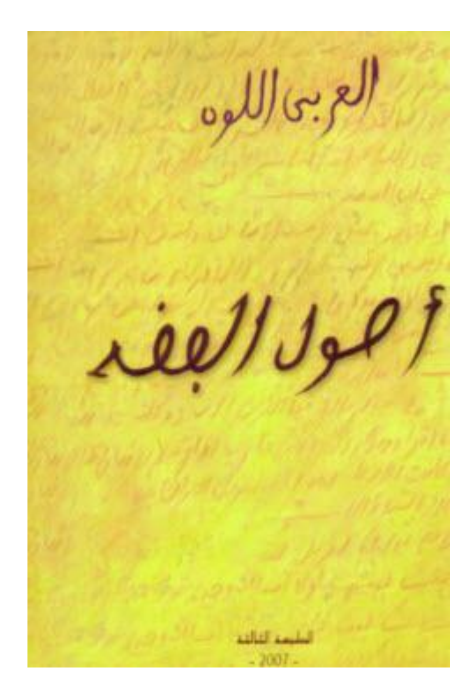
٢ . (الرائد في علم العقائد) وهو كتاب في علم العقائد الإسلامية، طبع لأول مرة بتطوان سنة ١٩٧٣، والطبعة الثانية كانت عن مطبعة النور بتطوان سنة ١٩٨٣، في حين صدرت الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٦ عن مطبعة (الهداية) بتطوان.

٣ . (المنطق التطبيقي) وهو كتاب في علم الميزان، صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٥عن مطابع ديسبريس بتطوان، وطبعت الطبعة الثالثة من الكتاب إلى سنة ٢٠٠٨ عن مطبعة الخليج العربي بتطوان. عرف في مؤلفه هذا علم المنطق مبينا فضله ومزاياه، ساردا مبادئه وأركانه وفروعه ومداخله إلخ.

٤ . (المنهال في كفاح أبطال الشمال) وهو كتاب تاريخي صدرت طبعته الأولى بتطوان سنة ١٩٨٢ عن مطبعة الشويخ ديسبريس، وثق فيه للأعمال البطولية التي قام بها المقاومون بالشمال ضد الاحتلالين الإسباني والفرنسي، وما قدموه من تضحيات جسيمة في سبيل وحدة الوطن وتحريره، وصدرت طبعته الثانية سنة ٢٠٠٩ عن مطبعة الخليج العربي بتطوان.

١ . (فتاوى العربي اللوه) هناك مجموعة من الفتاوى الفقهية عند تنتظر من الباحثين والمهتمين جمعها وإخراجها إلى النور.

وبعد هذه المسيرة العلمية المشكورة والمبرورة التي ملأت الريف وتطوان علما وفقها وجهادا ونضالا، توفي الشيخ الأستاذ العلامة العربي اللوه رحمه الله تعالى يوم الخميس ٢٢ ذي القعدة ١٤٠٨هـ الموافق لسنة ١٩٨٨م، وصلى عليه العلامة أحمد بن تاويت، ودفن بعدها بمقبرة سيدي المنظري خارج باب المقابر بتطوان.





جهود علماء المغرب الإسلامي في الدفاع عن النص الشرعي -الحديث أنموذجا-.

الدكتور محمد عبد الحليم بيشي
قسم العقائد والأديان، كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر ١

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وبعد؛ فقد تميز المغرب الإسلامي في صيرورته التاريخية بوحدة مذهبية سنية عمادها مذهب إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس رحمه الله، وهذه الوحدة المذهبية كانت عاصما له من منزلقات التشرذم والتشتت الفرقي والتطاحن الطائفي الذي عرفه المشرق الإسلامي وقد عد ذلك انتصارا للخط النصوصي الشرعي الذي هيمن على المصنفات المالكية التي تعتد كثيرا بالنص من حيث أن منشئ المذهب كان إماما لأهل الحديث في زمانه.

ولكن هذه الصيرورة التي انتهى إليها المغرب الإسلامي لم تكن ضربة لازب بل هي محصلة لجهود حثيثة من علماء العدوتين المغربية والأندلسية في محاربة ما كان يعرف بالتمشرق-أي التمذهب بمذهب أهل الرأي – تم إعلان الحرب الضروس على المذاهب الخارجية أولا ومن بعد ذلك الشيعة الإسماعيلية التي أنشأت الدولة الفاطمية، وعرفت إفريقيا قوافل الشهداء في الدفاع عن السنة وحرمة الصحابة، وبين ذلك كله أزاحت المذاهب المنحرفة، ولم تمض القرون الأربعة الأولى حتى كانت السنة النبوية مصدر التحاكم في الخلافات الفقهية.

إن النزوع إلى الاحتكام إلى النص الشرعي والدفاع عن المدونة الحديثة يعتبر معلما مهما لفهم صيرورة التدوين المالكي الذي انقسم إلى اتجاهين اتجاه محافظ تقليدي ميزته الشروح والمتون على المصادر الفقهية، وآخر تأصيلي حديث ميزته الاعتداد بكتب السنن والصحاح والمستدركات والزوائد والمستخرجات وغيرها.

كما يظهر ذلك الاعتداد والدفاع عن النص الشرعي في المعركة التي أدارها الفقهاء مع المتصوفة، ويكفي التذكير بأهم كتابين في الموضوع وهما الاعتصام للشاطبي والمدخل لابن الحاج المغربي.

وهذا البحث يرصد ويدرس الاتجاه الحديثي عند المالكية وذلك من خلال رصد أهم المنتجات المتعلقة بخدمة الحديث النبوي واتخاذه منطلقا لتأصيل والاستدلال وذلك بالقفز على المدونات الفقهية البحتة المشحونة بالأقوال والفتاوى والتخريجات، والخالية في الغالب من الدليل مثل المدونة لسحنون، والواضحة لابن حبيب، والمستخرجة للعتبي الأندلسي.

إن هذا الاتجاه الذي برز فيه أعلام أفداد كالحافظ ابن عبد البر، وابن العربي، والباجي، والقاضي عياض، وابن مرزوق التلمساني، كان يزاحم وبقوة الاتجاه التقليدي المذهبي. الذي كتب له الانتصار في عصور التقليد والمختصرات والمعتصرات. ولكن الاتجاه الأول عدّل في أحايين كثيرة من الصورة المذهبية المغلقة، مما جعله رافدا مهما في العصر الحاضر للفقه المعاصر الذي طوى أماد التقليد وعاد إلى الأصول المصدرية والتي وجد فيها الفقه المعاصر المفاتيح المهمة لتسيير حياة الناس وفق الشريعة الهادية. ولذلك كتب له الانتصار الأخير في المذهبية الإسلامية وفي الجامعات الإسلامية المعاصرة.

ولاستفصال الموضوع فإننا سنقسم البحث إلى الآتي:

أولا: دخول الحديث إلى المغرب الإسلامي، المسار والقرار.

ثانيا: الحديث في المغرب الإسلامي القرار والمدار.

ثالثا: شروح الموطأ. المنهج والطرائق القدد.

رابعا: شروح صحيح مسلم والريادة المغربية.

خامسا: الشروح المغربية للبخاري النهر الجاري.

الخاتمة.

بين يدي الموضوع:

يقف الحديث الشريف والسنة النبوية المطهرة في مصاف الركائز العظمى للثقافة الإسلامية، من حيث اعتباره المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، ولذلك ملئت المدونات الإسلامية بعلوم الحديث رواية ودراية، وتخريجا واستنباطا، وتحليلا وتعليلا. إذ جاوزت العلوم الخادمة للنص النبوي مائة علم، وناءت المكتبات بالشروح والتفاسير الخادمة للصحاح والمجاميع والسنن والمعاجم والمستدركات والمستخرجات والزوائد وكتب السيرة والشمائل والخصائص ودلائل ومعالم النبوة، فضلا عن كتب التخريج والتعليل والتصحيح والنسخ ومختلف الحديث وغريبه وبلاغته ولغته...إلخ.

وهذا الاعتناء بالنص النبوي يصب في خاتمية الإسلام، وهيمنة عقيدته، وإعجاز كتابه الذي قضى بالقدر الرفيع لمحمد صلى الله عليه وسلم، حيث لم تحفظ أمة نصوص وأفعال وأقوال نبي كالنبي الخاتم، والذي وعده ربه بخلود أمره ووسطية أمته وهيمنة شريعته مصدقا لقول الله تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[١]

كيف لا وهو النبي الذي زكاه ربه في أحواله كلها صغيرها وكبيرها. فقال تعالى
مزكيا منطقه : ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾[٢]
ومزكيا خلقه:﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٣]
ومزكيا فؤاده:﴿ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾[٤]
ومزكيا عقله ولبه: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾[٥]

وعليه تراكضت الأرجل وسهرت الأعين وكلت الأيدي وذبلت الجفون في كتابة الحديث وتدوينه وشرحه. ولكن الذي سما من كل الأعضاء هي الوجوه الناظرة التي وعدها محمد صلى الله عليه وسلم بالحسنى في الدنيا والآخرة حيث قال في خدمة حديثه وحفظة سنته:

" نضّر الله امرئ سمع منا حديثا، فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه.."[٦]

ولأجل ذلك لم تكن بلاد المغرب الإسلامي بعدوتيها الأندلسية والمغربية خلوا من خدمة الحديث الشريف حفظا وتدوينا ودراية وشرحا وتفسيرا، وهي وإن تأخرت إنتاجا عن نظيرتها مشرقا إلا أنها سبقت وبزت في أحيان عديدة غيرها كما سيأتي بيانه.

ولاستبصار الموضوع بروية وتؤدة فإننا سنتناول الموضوع كالآتي:

أولا: دخول الحديث إلى المغرب الإسلامي، المسار والقرار

يعود دخول الحديث إلى بلاد المغرب الإسلامي إلى الأيام الأولى لولوج الإسلام فاتحا المغارب الثلاث الأدنى (طرابلس وتونس)، والأوسط (الجزائر)، والأقصى (المغرب) ثم بلاد الأندلس منذ منتصف القرن الأول الهجري إلى نهايته، أي من بناء القيروان على يد الصحابي عقبة بن نافع الفهري (ت ٦٣ هـ)[٧] حتى فتح الأندلس على يد طارق بن زياد سنة (٩٢ هـ)[٨] .

حيث انتشر الإسلام بين جموع البربر[٩] في سرعة هائلة بررتها سماحة هذا الدين وإنسانيته التي جعلت البشر حيث كانوا وبأي لسان نطقوا أمة واحدة لا تفاضل ولا تراتب فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح، وسرعة الانتشار رافقتها حركة عجيبة في الإسلام الكلي للبربر، ثم تمكن العربية منهم حتى قالوا: إن الإسلام غرّب وعرّب".

هذا على عكس المشرق الذي بقيت فيه أقليات دينية عديدة كالنصارى والمجوس وعبدة الأصنام والكواكب الذين تحفل بذكر مقالاتهم كتب الملل والنحل.

عندما جاء الصحابة الأوائل وخاصة العبادلة منهم (عبد الله بن الزبير، عبد الله بن عمرو، عبد الله بن عمر، عبد الله بن عباس) [١٠]ومعهم جيش جحفل من التابعين بذرت الروايات الأولى للحديث التي عضّ عليها بالنواجذ مسلمو البربر، وعندما صارت القيروان بتونس دار إسلام صار مسجد عقبة بها جامعة إسلامية[١١] تدار فيها حلق العلم والرواية[١٢]، شأنها شأن جامع عمرو بالفسطاط وجامعي البصرة والكوفة بالعراق والأموي بالشام.

كما أن البعثات التعليمية التي وفدت من المشرق حملت معها علم السنة، وخاصة بعثة التابعين التي أرسلها الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١هـ)، وجاءت بغرض تعليم الأمازيغ شؤون دينهم[١٣]، وضمن عشرة من كبار التابعين، وعلى رأسهم المحدث "إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر" [١٤]الذي قال: "ينبغي أن نحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نحفظ القرآن"[١٥] وكان لهذه البعثة الدور الأجلى في ترسيخ تقاليد الرواية في المغرب الإسلامي التي وإن تأخرت قليلا عن مثيلاتها في الحجاز والعراق ومصر، فمرد ذلك إلى تأخر فتح المغرب وإسلام البربر، ثم القلق السياسي الذي كان يحياه المغرب الإسلامي في عصر الولاة بسبب ثورات الخوارج من إباضية وصفرية طوال النصف الأول من القرن الثاني الهجري[١٦]، إلا انه يمكننا أن نجمل العوامل التي رافقت مسار الرواية الحديثة في الآتي:

ا/ وفود التابعين على إفريقية للتعليم والتدريس، وحتى الهجرة فرارا من الظلم. حيث وفد على العرب جماعات عديدة من التابعين وتابعيهم الذين حملوا الرواية وأسانيدها ونشروها في حلق العلم بالقيروان وغيرها، ومن هؤلاء يحي بن سعيد بن قيس الأنصاري(١٤٣هـ)[١٧]

الذي روى عنه ابن شهاب الزهري والسفيانان، وكان من شيوخ الإمام مالك بن أنس.

وكذلك التابعي حنش الصنعاني [١٨]الذي عاصر فتوح الأندلس وأقام بإفريقية معلما ومحدثا، وبها توفي سنة مائة للهجرة.

ومن الذين وفدوا المغرب فارين عكرمة البربري[١٩] تلميذ ابن عباس الذي حدث بإفريقية كثيرا.

ب/ الرحالة المحدثون وهم من الجلة بمكان حيث كانت الرحلة في طلب الحديث وخاصة إلى الحجاز في مواسم الحج معبرا مهما لانتقال الرواية إلى المغرب، وقد ذكر أصحاب التراجم والسير والإخباريون أسماء عديدة من المتقدمين والمتأخرين الذين شدوا الرحال للاستزادة من الرواية أمثال عبد الرحمن بن زياد المعافري (ت١٦١هـ)[٢٠] الذي ولي قضاء القيروان، وهو من شيوخ سفيان الثوري وابن المبارك وغيرهم، وكان قد رحل إلى المشرق ثلاث مرات، وكذلك أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي(ت١٧٥هـ)[٢١] الذي رحل إلى المشرق وسمع من جلة المحدثين كسفيان وابن جريج والأعمش ومالك وأبي حنيفة. ثم عاد محدثا بمسجد القيروان أكثر من عشرين سنة.

ج/ مذهب الإمام مالك بن أنس: انتقل مذهب مالك بن أنس (ت١٧٩هـ) إلى إفريقية بطرائق عديدة منها الرحلة إلى الحجاز وكذا القرب من المدرسة المالكية المصرية، وسمعة الرجل الذي طبقت شهرته الآفاق، فتتلمذ عليه وعلى كبار تلامذته كابن القاسم المصري(ت١٩١هـ)[٢٢] شيوخ مغاربة كثر حملوا معهم موطئه الذي جمع بين الفقه والرواية.

ولما كان الحديث عمدة للمذهب المالكي فإنه انتشر واشتهر بانتشاره. خاصة وقد أطبق عليه علماء المغرب بعد إزاحة المذاهب الأخرى كمذهب أهل العراق الأحناف، كما قال القاضي. عياض: "وأما إفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك، فأخذ به كثير من الناس" [٢٣]

ويعلل ابن خلدون(ت٨٠٨هـ) هذا الانتشار للمذهب المالكي بتشابه البيئتين الإفريقية والحجازية، فيقول: "وأما مالك–رحمة الله تعالى– فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس. وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل ، لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم.

والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق. ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة. وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده. فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته، وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكون يعانون الحضارة التي لأهل العراق. فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة. ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم. ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب"[٢٤].

اشتهر من هؤلاء المحدثين الذين نقلوا موطأ الإمام مالك "علي بن زياد العبسي" التونسي(١٨٣هـ) [٢٥] الذي سمع من مالك والليث بن سعد وسفيان الثوري الذي نقل جامعيه الصغير والكبير إلى تونس.

وكذلك البهلول بن راشد(١٨٣هـ)[٢٦] الذي رحل مع عبد الله بن غانم وعبد الله بن فروخ، وسمع الموطأ من مالك، والجامع الكبير لسفيان الثوري.

أما أول رجل أدخل الموطأ إلى الأندلس فهو الغازي بن قيس الأموي(٢٣٠هـ)[٢٧] كما أدخل معه قراءة نافع، وبه انتشرت رواية الموطأ، حتى عاد يحي بن يحي الليثي الملقب بعاقل الأندلس (٢٣٤هـ)[٢٨]فغلبت روايته على الآخر ين.

إلا أن الحسم في سيطرة مذهب مالك على بلاد المغرب يعود إلى الفقيه أسد بن الفرات(٢١٣هـ) [٢٩] صاحب المدونة الأسدية التي جمع فيها بين فقهي أهل العراق وأهل الحجاز، ثم إلى الإمام سحنون بن سعيد (٢٤٠هـ)[٣٠] صاحب المدونة المشهورة التي جمع فيها فتاوى شيخه عبد الرحمن بن القاسم برواية الإمام مالك بن أنس، والتي غدت مصدر الأحكام المالكية [٣١]حتى قال عنها ابن رشد الجد هي عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو وكتاب إقليدس عند أهل الحساب"[٣٢]

لقد تزاوج الفقه مع رواية الحديث في إفريقية والأندلس جريا على عادة الإمام مالك في دروسه في المدينة. وصحيح أن ازدهار الحديث لم يواكب ازدهار الفقه نظرا لبعد الشقة بين المشرق موطن الحديث وبين المغرب، كما أن المشكلات الفقهية الكثيرة في بلاد حديثة عهد بالإسلام جعل من مساحة الفتوى والنقل أكبر من مساحة الرواية والحديث، كما أن المغرب لم يعرف عملية جمع الحديث وتدوينه وتتبّع أسانيده الأصلية عند الحجازيين أو البصريين أو الكوفيين، إذ هي المناطق الكبيرة التي حوت روايات الصحابة رضوان الله عليهم، ولهذا لم يظهر محدثون رواة كبار من طبقة ابن شهاب أو السفيانين في المغرب، ولكن هذا النقص الذي كان في بداية الأمر سرعان ما تداركه المغاربة بالانكباب على كتب

السنة المدونة لينقلوها ويحفظوها، ثم يعكفون على شرحها وتفسيرها، ويسهموا بنزر قليل في علم الدراية، ومرجع ذلك ليس نقص الكفاءة العلمية، وإنما لعوامل موضوعية أهمها غياب الوضع في الحديث عندهم، وكون كبار علماء الجرح والتعديل مشارقة فمرده إلى أن أصل الرواية هو المشرق وأن مستقرها وموئلها هو المغرب.

ثانيا: الحديث في المغرب الإسلامي القرار والمدار

عرف المغرب الإسلامي تيارا حديثيا صرفا منافسا للمالكية والحنفية تمثل في أهل الأثر والحديث الذين أنشدّوا في تخريجاتهم الفقهية ومنهجيتهم العلمية إلى الأثر والحديث، ودافعهم في ذلك الوقوف ضد تيار أهل الرأي ممثلين في الحنفية الذين كانت لهم الصولة أيام الدولة الأغلبية بإفريقية[٣٣]، ثم ضد المالكية الذين انكبوا على المدونة السحنونية متخذين من الآراء الفقهية للإمام مالك مرجعا لا محيد عنه في الفتوى.

وبلغ الصراع أوجه في القرون الثلاثة الأولى عندما صار المذهب المالكي رسميا يفتى ويقضى به في أرجاء المغرب كما قال ابن حزم الأندلسي: "مذهبان انتشرا أمرهما بالرئاسة والسلطان مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله فكان لا يولي البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى إفريقية إلا أصحابه المنتمين إلى مذهبه، ومذهب مالك بن أنس عندنا(الأندلس)، فإن يحيى بن يحيى (راوي الموطأ) كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاض في أقطارنا إلا بمشورته أو اختياره، ولا يشير إلا بأصحابه، ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا والرئاسة، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به"[٣٤]

تفيدنا كتب التراجم أن عديدا من العلماء تمردوا على هذا الاتجاه المذهبي، وراحوا يراجعون المنهجية العلمية السائدة منشدين إلى دواوين الحديث يتخذونها مصدرا لأحكامهم، ومدارا لحلقاتهم. ومن هؤلاء الإمام بقي بن مخلد (٢٧٦ هـ)[٣٥] الذي جاء من رحلته المشرقية محملا بالأسانيد العالية للحديث، قال عنه ابن حزم: "وكان مخيرا لا يقلد أحدا، وكان جاريا على مضمار البخاري ومسلم والنسائي" فكاده علماء قرطبة حتى ألزموه البدعة وسعوا به إلى السلطان.

ومن هذا التيار الإمام منذر بن سعيد البلوطي (٣٥٥هـ)[٣٦] الذي دخل في صراعات مع أقرانه من أجل التقليد والاعتداد بالحديث، وجرت له محن مذكورة.

ومن المتوسطين الإمام محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي (ت ٤٨٨هـ)[٣٧] الذي ثار ضد التقليد وكانت له مواقف محمودة في نصرة الحديث ترجمها عمليا في مشرعه العلمي الموسوم بالجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم.

إلا أن الصوت الأعلى في هذا المضمار كان لإمام الأندلس أبي محمد علي بن حزم (٤٥٠هـ)[٣٨] الذي كانت له معارك مشهورة مع مالكية الأندلس، والفقيه الباجي أبي الوليد خاصة في قضايا الأصول والقياس والبراءة الأصلية[٣٩].

قال ابن بشكوال: "ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسعة في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، ألف في علم الحديث والمسندات كثيرا، وألف في فقه الحديث "الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام والسنة والإجماع""[٤٠].

وقد أحدث ابن حزم حركة في الاتجاه التشريعي في المغرب بلغت ذروتها مع دولة الموحدين التي نفذت جزء من مشروعه في ترك التقليد الذي فشا على عهد المرابطين والذي وصفه المراكشي: "ولم يكن يقرب من أمير المسلمين-علي بن يوسف بن تاشفين- ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مالك، فنفقت في ذلك كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعني بها كل الاعتناء."[٤١]

قام الموحدون بمراجعة للمنهج العلمي السائد القائم على التقليد فكروا عليه بإصدار قرارات سلطوية بمنع الكتب المذهبية، بل والأمر بإحراقها[٤٢]، وإلزام طلبة العلم بالرجوع إلى المصنفات الحديثية، بل إنهم صاغوا برامج تعليمية لطلبة الموحدين في الفقه من المصادر الحديثية الأصلية بدل كتب المالكية، يقول المراكشي: "وفي أيام يعقوب بن المنصور (الموحدي) انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء وأمر بإحراق كتب المذهب، بعد أن تجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن القرآن، فأحرق منها جملة من سائر البلاد كمدونة سحنون، وكتاب بن يونس، ونوادر ابن أبي زيد، وكتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب. وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة، الصحيحين والموطأ ومسند الدارقطني ومسند البيهقي في الصلاة وما يتعلق بها، وكان قصده محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة"[٤٣].

لقد كان مخاض استقرار مصنفات الحديث الشريف طويلا، فبسبب تلك المراجعات العلمية لطرائق التعليم من قبل الفقهاء ذاتهم وأحيانا من قبل السلطة، وبسبب الصراع مع المذهب الظاهري في الأندلس. ثم التواصل مع المشرق الإسلامي موطن الحديث وموئله في الرحلات العلمية في الحج وغيره. بدأت الجهود العلمية تنصب لخدمة الحديث الشريف والسنة النبوية درسا وتدريسا وتحقيقا وتفسيرا. وبرزت حلق علمية خاصة بالرواية وأخرى أكبر منها خاصة بالفقه المستند إلى الحديث.

ويمكننا من الاستقراء أن نتكلم عن مجاميع حديثة لقيت شهرتها ثم انكب عليها العلماء بالشرح والتدريس، ومنها:

١- **موطأ الإمام مالك بن أنس**: الذي يعد كتاب الحديث الأول في المغرب الإسلامي من حيث الاعتناء بشرحه وبيان غريبه، ووصل موقوفه، وترجمة رواته، والجمع بينه وبين المصنفات الأخرى. وهذا الكتاب الذي جمعه مالك خلال أربعين سنة[٤٤] "وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وبوبه على أبواب الفقه فأحسن ترتيبه وتبويبه فكان كتابا حديثيا فقهيا جمع بين الأصل والفرع، فهو أول تدوين يعتبر في الحديث والفقه. إذ أقبل عليه الخلق وانتفعوا منه، لتحريه في النقل وانتقاء أحاديثه ورجاله"[٤٥].

ولو تتبعنا البيلوغرافيا الناشئة حول الكتاب لوجدناها تربوا على العشرات، وكان للمغاربة نصيب السبق في العناية والشرح لهذا الكتاب. ومن تلك الشروح ما يأتي:

-تفسير الموطأ لعبد الملك بن حبيب القرطبي(٢٣٨هـ)[٤٦]

- تفسير الموطأ لأبي المطرف عبد الرحمن بن مروان القنازعي (٤١٣ هـ)[٤٧]

- النامي في شرح الموطأ لأحمد بن نصر الداودي الجزائري(٤٠٢ هـ)[٤٨]

- شرح مشكل ما وقع في الموطأ و البخاري لبن خلف الألبيري ٥٣٧ هـ)[٤٩]

- المنتقى في شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (٤٧٤ هـ)

- جمع الكتب الخمسة مع الموطأ (محمد بن محمد بن سليمان الفاسي) (١٠٩٤)

- شروح ابن عبد البر القرطبي (٤٦٣ هـ) مثل التمهيد والاستذكار.

- شروح القاضي أبي بكر بن العربي (٥٤٣هـ)[٥٠] مثل المسالك، القبس.

هذا إضافة إلى عديد المؤلفات التي دارت حول الموطأ بترتيبه بالأسانيد مثل (مسند الموطأ لأحمد بن زياد ابن الأعرابي (٣٤٠هـ)[٥١] أو التي اهتمت بعلله أو غريبه أو مشكله أو زيادته، ثم اختصاره وتجريده. وهو دال على العناية الخاصة للمغاربة بهذا الكتاب الجليل في السنة النبوية.

٢- صحيح البخاري(٢٥٦هـ): والذي دخل إلى المغرب منذ بداية القرن الرابع بعامل الرحلة والرواية. فقد دخل سنة ٣٠٧ على يد الإمام أبي الحسن علي محمد القابسي (٤٠٣هـ)[٥٢] ثم على يد الحافظ أبي محمد الأصيلي(٣٩٢هـ)[٥٣] وعنهما شاعت روايته في بلاد المغرب والأندلس[٥٤].

وكانت عناية المغاربة به فائقة في المرحلة المتأخرة بعد القرن السادس خاصة، إلا أننا لم نعدم شروحا وتفاسير له في مثل ذلك ومن أمثلة ذلك:

- كتاب النصيحة في شرح صحيح البخاري للإمام أحمد بن نصر الداودي التلمساني (٤٠٢هـ) وهو أول شرح للصحيح -إذ استثنيا عصريه الخطابي-.
- شرح البخاري لابن بطال علي بن خلف القرطبي (ت٤٤٩)[٥٥]
- شرح البخاري لابن أبي جمرة الأندلسي المعروف ببهجة النفوس (ت٦٩٩ هـ)[٥٦].
- "ترجمان التراجم، في وجه مناسبة تراجم البخاري"، "إفادة النصيح، في التعريف بسند الجامع الصحيح" أبو عبد الله محمد بن رشيد السبتي (ت ٧٢١ هـ).
- المتجر الربيح في شرح الجامع الصحيح لابن مرزوق التلمساني (ت ٨٤٢هـ).
- أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت ٨٩٥ هـ) شرح البخاري لم يكمله.

٣- صحيح مسلم بن الحجاج النيسابوري :

كانت عناية المغاربة به شديدة حتى ذهب البعض منهم إلى تفضيله على صحيح البخاري، ونقل ابن خلدون قوله: "وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به، وأكبوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع لهم في التراجم...."[٥٧]

وهذا التفضيل لا يعود إلى مسألة الأصحية وإنما لامتيازات مسلم على البخاري في التبويب والتأليف كما نقل عن ابن حزم قوله عن صحيح مسلم: "ليس فيه بعد خطبته إلا الحديث الصحيح مسرودا غير ممزوج بمثل ما في كتاب البخاري في تراجم أبوابه من الأشياء التي لم يسندها أهل الوصف المشروط في الصحيح، وأيضا فإن مسلما قد اختص بجمع طرق الحديث في مكان واحد."[٥٨]

وعليه توالت الشروح والتفاسير بصحيح مسلم، ومن نماذج ذلك ما يأتي:

- المعلم بفوائد صحيح مسلم للإمام المازري (ت٥٦٣ هـ)
- إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عيا ض اليحصبي (ت٥٤٤).
- المفهم في شرح مسلم لأبي العباس أحمد بن إبراهيم الأنصاري (٦٥٦هـ)[٥٩]
- شرح صحيح مسلم لأبي بكر محمد بن أحمد بن أبي جمرة (٥٩٨ هـ)[٦٠]

- مكمل إكمال الإكمال لأبي عبد الله السنوسي التلمساني (٨٩٥ هـ)[٦١]

كما صنفت كتب عديدة في رجال مسلم مثل كتاب ابن يربوع الاشبيلي (٥٢٢هـ) المعروف بـ"المنهاج في رجال مسلم بن الحجاج" [٦٢]، أو في غريب صحيح مسلم مثل كتاب القاضي عياض: "مشارق الأنوار على صحاح الآثار"، هذا فضلا عن المختصرات والتجريدات والمصنفات التي اهتمت بالجمع بينه وبين غيره من كتب السنن مثل كتاب الحميدي (٤٨٨هـ) الجمع بين الصحيحين[٦٣] وغيره، وهو ما يدل على العناية اللائقة بهذا الجامع الصحيح.

٤-المجاميع الحديثية الأخرى:

وقد انتالت تباعا على بلاد المغرب والأندلس، وشملت كل من المجاميع والمسانيد والمصنفات والسنن والأجزاء وغيرها. ومن أوائل ما دخل إلى بلاد إفريقية جامع سفيان الثوري الذي نقله البهلول بن راشد [٦٤] وكذلك مصنف أبي بكر بن أبي شيبة (ت٢٣٥هـ) الذي رواه عنه بقي بن مخلد الأندلسي (ت ٢٧٦هـ) ونقله إلى الأندلس، وأثار عليه بسببه أصبغ بن خليل(٢٧٣ هـ) [٦٥] الذي قال تعصبا: "لأن يكون في تابوتي رأس خنزير أحب إلي من أن يكون فيه مسند بن أبي شيبة."[٦٦].

وكذلك مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١٥ هـ) الذي أدخله أحمد بن خالد بن يزيد ابن الحباب (٣٢٢ هـ)[٦٧]

ومسند مسدد بن مسرهد (٢٢٨) الذي رواه الشاعر المحدث بكر بن حماد التاهرتي الجزائري (٢٩٦ هـ)[٦٨] وعنه انتشر ببلاد المغرب.

أما سنن النسائي أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب (٣٠٣هـ) فقد انتشر منذ القرن الرابع، ومن أشهر رواتها ابن الأحمر (ت٣٢٢هـ)[٦٩].

ونفس الأمر مع سنن الترمذي (٢٧٩هـ) الذي حمله الرواة معهم من رحلاتهم وقد اشتهر مع شرح الإمام ابن العربي المعافري المالكي له في عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي[٧٠].

وكذلك سنن أبي داود فقد انتشرت في الأندلس وعليها كان يعتمد ابن حزم في تخريجاته الفقهية في كتابه الموسوعة المحلى بالآثار.

ثالثا: شروح الموطأ: المنهج والطرائق القدد

حظي الموطأ بالعناية الكبرى من قبل المغاربة. بل إن هؤلاء فاقوا المدارس المالكية الأخرى: المصرية والعراقية والمدنية[٧١] بكثرة ما أنتجوه حوله وبوفرة ما استخرجوه منه، ويكفي في الدلالة على المكانة السامقة ما قاله الإمام ابن العربي الاشبيلي في حق الموطأ: "الكتاب الأول واللباب هو الموطأ، والثاني

صحيح البخاري هو الأصل الثاني في هذا الباب، وعليهما بناء الجميع كالقشيري–مسلم– والترمذي فما دونهما"[٧٢].

وكذلك ما قاله عياض: "لم يعتن بكتاب من كتب الفقه والحديث اعتناء الناس بالموطأ، فإن الموافق والمخالف أجمع على تقديمه وتفضيله وروايته وتقديم حديثه وتصحيحه"[٧٣].

ولأجل ذلك كثرت شروح الموطأ وسنختار أنموذجا لتفسير الموطأ. ومن المعلوم أن كتب تفسر الحديث وشرحه تنقسم إلى ثلاثة أنواع أهمها:

أ/ كتب الشرح الموضوعي: وهي التي تنقسم مباحثها إلى الكلام عن سند الحديث وعلله ووصله، ثم الكلام عن متنه إلى مباحث لا تراعي دوما ترتيب ما في الحديث، ولا يلتزم أصحابها التطواف بكل ما في الحديث، فيتكلم الشارح عن غريبه ثم فقهه. ومن هذه النماذج كتاب عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي للقاضي ابن العربي المالكي.

ب/ الشرح الموضعي أو الشرح بالقول: حيث يهتم المؤلف بشرح كل ما يتعلق بالحديث من ألفاظ، وما يتأتى منها من معان وأحكام وفوائد، إضافة إلى بيان ما في السند بالكلام عن الرجال والوصل والانقطاع وغير ذلك.

ومن هذا النموذج كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني أو كتاب عمدة القاري بشرح صحيح البخاري للعيني.

ج/ كتب الشرح الممزوج: وهي التي يدخل فيها الشارح كلامه بين ثنايا الحديث سندا ومتنا، لتوضيح معنى الحديث على شكل مختصر، ومن أمثلة ذلك إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري لأحمد بن محمد القسطلاني(ت٩٢٣ هـ)[٧٤].

توزعت تفاسير الموطأ على التقسيمات السابقة، ولكثرتها فإننا سنستقرأ كتابين في شرح الموطأ، الأول لابن عبد البر وهو الاستذكار، والثاني هو المنتقى للإمام الباجي المالكي.

وريادة هذا التفسير الأول أي الاستذكار راجعة إلى ذات الشرح أولا، ثم إلى شخصية مؤلفه.

أما المؤلف أبو عمر بن عبد البر (ت٤٦٣ هـ) [٧٥]الذي جمع علوما وفنونا عديدة وكان موسوعة علمية "وفاق من تقدمه من رجال الأندلس وعظم شأنه بالأندلس، وعلا ذكره في الأقطار، ورحل إليه الناس وسمعوا منه، وألف تواليف مفيدة طارت في الآفاق"[٧٦] .

وقدم خدم ابن عبد البر الموطأ بمؤلفين مهمين مختلفين في المنهج.

الأول: التمهيد لما في الموطأ من المعني والأسانيد.

رتبه ترتيبا جديدا على المسانيد، حيث قسم الكتاب على روايات الصحابة مخالفا تبويب الإمام مالك لموطئه على الأبواب الفقهية المعروفة[٧٧]، ونال هذا الكتاب شهرة واسعة حتى قال فيه غريم المالكية بالأندلس ابن حزم الظاهري: "وهو كتاب لا أعلم في الكلام في الحديث مثله أصلا، فكيف أحسن منه."[٧٨]

الثاني: "الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من المعاني والآثار"

وقد عرض فيه ابن عبد البر منهجيته في تفسير أحاديث الموطأ التي التزم فيها ترتيب الكتاب برواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي في المقدمة التي قال فيها:

"إن جماعة من أهل العلم وطلبته والعناية به سألونا أن اصرف لهم كتاب التمهيد على أبواب الموطأ ونسقه. وأحذف لهم منه تكراره وشواهده وطرقه. وأصل لهم شرح السند والمرسل اللذين قصدت إلى شرحهما خاصة في التمهيد. بشرح جميع ما في الموطأ من أقاويل الصحابة والتابعين. وما لمالك فيه من قوله الذي بنى عليه مذهبه واختاره من أقاويل سلفه وأهل بلده الذين هم الحجة عنده على من خالفهم، واذكر على كل قول رسمه وذكره فيه ما لسائر فقهاء الأمصار من التنازع في معانيه حتى يتم شرح كتاب الموطأ"[٧٩]

- مثّل الاستذكار اختصارا لكتاب التمهيد، إلا أنه حافظ على نسق التأليف في التركيز على الفقه والأحكام المستنبطة من الأحاديث مع ذكر آراء الفقهاء واختلافاتهم. بما يمثل ريادة في الفقه المقارن، كما أنه لم يغفل الاستفادة من المصنفات الحديثية التي نقلت آراء الصحابة والتابعين كمصنف ابن أبي شيبة وعبد الرزاق، ولأجل هذه العناية التي تصل مذهب مالك بالسلف فإنه أكثر من ذكر شواهد ونقول السلف في الأحكام الفقهية، وكأنه حاكى وعارض به محلى ابن حزم (٤٥٠هـ) وقيمة هذا التفسير للموطأ تظهر من البيئة التي كتب فيه، فهي بيئة عكفت على الانتصار لمذهب مالك وتقليده ونفي كل رأي يخالفه، حيث كان التمشرق -أي الأخذ بآراء أهل المشرق كالأحناف والشافعية- سبّة عند أهل الأندلس والمغرب، حتى أن كثيرا من العلماء امتحنوا بسبب ذلك.

فجاء هذا الكتاب ليكسر حدة التقليد، ويستنطق من الحديث مفاهيم متعددة تبرر الخلاف وتجيزه، وبالتالي تفتح الآفاق أمام العقل الفقهي لئلا يقع أسير الرؤية الأحادية القائمة على الإقصاء. فهو كتاب فقه مقارن مؤيد بالدليل الحديثي.

وعليه؛ فإن منهجية الاستذكار ومن قبله التمهيد رامت فتح الأحادية الفقهية واستبطنت من حيث لم تنطق رحابة الفقه الإسلامي، وكسرت من حدة التقليد السائد باستصحاب الرؤى الفقهية من خارج

المذهب، وهو صنيع نجده يتكرر عند محدثين آخرين متأخرين كابن حجر العسقلاني في الفتح. وهكذا كتبت للأندلس الريادة في الفقه المقارن مع ابن عبد البر ثم مع الحفيد ابن رشد (٥٩٥هـ)[٨٠] في بداية المجتهد ونهاية المقتصد، كما عرفتها مع ابن حزم الأندلسي في ريادته لتأسيس علم مقارنة الأديان في موسوعته الشهيرة: الفصل في الملل والأهواء والنحل.

-يطالعنا الإمام الثاني المعاصر لابن عبد البر الفقيه أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف (ت٤٧٤هـ) [٨١] بمؤلف آخر في شرح الموطأ وهو المنتقى، بعدما ألف قبله كتاب الاستيفاء في شرح الموطأ، وكان بدعا في كلا التفسيرين للموطأ.

يمتاز الباجي بكونه جمع إلى جانب الفقه والحديث علم الأصول والكلام، وتميزه يعود إلى رحلته المشرقية التي أفاد فيها من الإنتاج المشرقي في كلا الأصلين. ولأجل هذا أجمع المترجمون على علو كعبه فقد كان: "فقيها نظارا محققا راوية محدثا، يفهم صنعة الحديث ورجاله، متكلما أصوليا فصيحا شاعرا مطبوعا، حسن التأليف، متسق المعارف، ولكن أبلغ ما كان في الفقه، وإتقانه على طريق النظار من البغداديين وحذاق القرويين" .[٨٢]

ويكفي في تأكيده هذه الشهادة أنه عندما عاد من المشرق ناظر ابن حزم الظاهري في الأصول، وأفحمه في ذلك، وكان سبب نكبته وإحراق كتبه ثم نفيه[٨٣].

يعتبر المنتقى أحسن تفسير مذهبي للموطأ بشهادة المتأخرين إذ بين خطته في شرحه فقال: "أقتصر فيه على الكلام في معاني ما يتضمنه الكتاب من الأحاديث، والفقه. وأصل ذلك من المسائل بما يتعلق بها في أصل كتاب الموطأ، ليكون شرحا له، وتنبيها على ما يستخرج من المسائل منه، ويشير إلى الاستدلال على تلك المسائل والمعاني التي يجمعها، وينصها ما يخف ويقرب، ليكون ذلك حظ من ابتدأ بالنظر في هذه الطريقة من كتاب الاستيفاء إن أراد الاقتصار عليه، وعونا له إن طمحت همته إليه، فأجبتك إلى ذلك، وانتقيته من الكتاب المذكور، على حسب ما رغبته، وشرطته، وأعرضت فيه عن ذكر الأسانيد، واستيعاب المسائل، والدلالة، وما احتج به المخالف، وسلكت فيه السبيل الذي سلكت في كتاب الاستيفاء من إيراد الحديث والمسألة من الأصل، ثم أتبعت ذلك ما يليق به من الفرع، وأثبته شيوخنا المتقدمون رضي الله عنهم من المسائل"[٨٤]

هذا التفسير الحديثي امتاز بجملة مزايا أهمها شرح الحديث واستخراج فوائده وفروعه الفقهية مع عرض أقوال الأئمة وخاصة داخل المذهب، ومن خارجه أحيانا مع ذكر الدليل المالكي، وكأنه قفز على

المدونات التقليدية التي لا تهتم بالدليل مثل الواضحة لابن حبيب، والمستخرجة لمحمد العتبي (٢٥٥هـ)[٨٥] والمدونة لسحنون.

كما أنه استثمر فيه معارف المدرستين العراقية والمدرسة القيروانية وهي محاولة رائدة لوصل ما انقطع بين المدرستين.

كما طرح جانب دراسة الأسانيد والرجال والسبب يعود إلى قطعية أحاديث الموطأ ولكونه أراد للكتاب أن يكون مصدر للفقه المدلل بدل الفقه المصمت الذي يسلم بأقوال الأئمة دون أن يتبعها بالدليل، وكأنه تمرين للطالب على فهم تخريجات الإمام مالك الفقهية متبوعة بأدلتها. ولذلك اعتبره المستشرق أنخل بالنتيا[٨٦] أحسن كتاب ألف في مذهب مالك لأنه شرح أحاديث الموطأ وفرع عليها تفريعا حسنا.

رابعا:شروح صحيح مسلم والريادة المغربية

كتب للمغاربة الريادة في شرح صحيح مسلم[٨٧] مع علمين كبيرين أحدهما تونسي وهو الإمام المازري في كتابه المعلم بفوائد مسلم، والثاني لمغربي هو القاضي عياض في كتابه "إكمال المعلم"

أما الأول فهو الإمام المجتهد أبي عبد الله بن محمد بن علي المازري (ت٥٣٦ هـ)[٨٨]. والذي يعد شرحه أساسا لمن بعده، فمن الناحية العلمية يعتبر كتاب المعلم الأساس الذي بنى عليه شراح مسلم كتبهم وأفادوا منه، وعليه مدار تصنيفاتهم، وقد تسلسلت مصنفات المغاربة عليه بين إكمال وتكميل لمدة خمسة قرون، كما أفاد منه المشارقة كالنووي (ت٦٧٦ هـ) في المنهاج، وكذا ابن حجر (٨٥٢ هـ) في فتح الباري، والسيوطي (٩١١ هـ) في الديباج[٨٩].

وقال محققه الشيخ الشاذلي النيفر: "طريقة المعلم طريقة مبتكرة، حيث أن صاحبه ركز فيها بحوثه على الاستنتاج والاستنباط، مقدما لذلك على غيره، وله في ذلك أغراض متعددة خدم بها الكتاب خدمة جليّ، لم يسبقه إليها سابق."[٩٠]

كانت منهجية هذا التفسير لمسلم مخالفة لما سواه حتى ممن أتى بعده، فصاحبه بلغ درجة الاجتهاد والتميّز، ولأجل ذلك ركز على الاستنباط من الحديث مستعملا الآلة اللغوية، ومعملا عقله الكلامي حيث تبرز أشعريته الواضحة في الدفاع عن العقائد السنية.

ولأجل ذلك اهتم بعيون المسائل وتحريرها بدل الخوض في المماحكات الفقهية والسندية، ولا غرو فهو : "آخر المشتغلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه، ورتبة الاجتهاد، ودقة النظر"[٩١].

ويمكن أن نلخص منهجية هذا التفسير لصحيح مسلم بالآتي:

– عدم الإيغال في الصناعة الحديثية من حيث الرواية بالسند، ولأجل ذلك لم يعرض بالتعقيب على منهجية الإمام مسلم في مقدمته الشهيرة لصحيحه إلا قليلا[٩٢].

– عدم شرح كل الأحاديث الواردة في أبواب مسلم، فهو يختار المهم فيها، والتي يكون عليها محور الباب، لأنه عادة مسلم جمع المكررات في باب واحد عكس البخاري[٩٣].

واختياره للمهم من أجل الاستنباط، وعليه فإنه يعد من أول شراح الحديث الذين فتحوا باب الاستنباط من السنة النبوية، لأن من تقدمه انصرفت عنايتهم إما للسند، وإما لغريب الحديث ، وهما اللذان اعتمد فيهما على المصادر المتقدمة"[٩٤].

– الاعتماد على تفسير الحديث بالقرآن أولا، ثم بالسنة ثانيا، وكذا باللغة العربية وهو ما جعل النسق العلمي متزنا لا ينزل إلى التناقضات الواضحة في تفاسير من بعده،وفي ذلك نماذج عديدة مثل تعليقه على حديث البراءة من الصالقة والحالقة والشاقة[٩٥].

– الاهتمام بالقضايا العقدية وتحريرها وتدليلها والرد على أهل الأهواء منها، وقد كان وفيا لأشعريته السنية، حيث أتبع تفسير كتاب الإيمان بآرائه السديدة في موضوع الصفات والتقليد وعصمة الأنبياء والتكفير وغير ذلك.

ومن نماذج ذلك تعليقه على حديث ضحك الله تعالى، حيث يقول: "الضحك من الله محمول على الرضا والقبول، ومن ذلك يقال: ضحكت الأرض إذا ظهر نباتها"[٩٦].

وكذا في تعليقه على أحاديث التكفير بالمعاصي مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"[٩٧].

حيث قال: مؤمن أي آمن من عذاب الله، ويحتمل أن يكون معناه مستحلا ذلك، وقد قيل: معناه أي كامل الإيمان، وهذا على قول من يقول أن الطاعات لا تسمى إيمانا، وهذه التأويلات تدفع قول الخوارج أنه كافر بزناه، وقول المعتزلة: أن الفاسق الملي لا يسمى مؤمنا تعلقا من الطائفتين بهذا الحديث، وإذا احتمل ما قلناه لم تكن فيه حجة."[٩٨]

– الإكثار من ذكر أقوال الأئمة المعدودين في المسائل الفقهية دون غيرهم من غير المشهورين، مع تذييلها غالبا بأدلتها من الكتاب والسنة والترجيح بينها.ونجده غالبا ينتصر لمذهب مالك وقد يخالفه أحيانا، وقد يذكر سبب الخلاف في المسألة وفائدته[٩٩].

وخلاصة القول أن المازري فتح فنا جديدا في تفسير الحديث، كان بدعا فيه باعتماده الإيجاز والاختصار والتركيز على الفوائد المباشرة المستنبطة من الحديث دون حشوه بالاستطرادات والزيادات

والمماحكات السندية. فهو شرح اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه كما قال ابن خلدون[١٠٠].

أما الكتاب الثاني الذي حاكى الأول فهو للقاضي عياض اليحصبي السبتي المالكي المغربي[١٠١]، والذي جارى فيه المازري وسماه: "إكمال المعلم بفوائد مسلم"، فكان أكثر تميزا في تفسير صحيح مسلم لأنه احتف بكتب أخرى خدم بها القاضي الحديث الشريف ومنها: "كتابه الشفا في التعريف بحقوق المصطفى". وكتاب "مشارق الأنوار على صحاح الآثار"، وكتاب "الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع" وهو من الكتب المتقدمة في علم الدراية عند المغاربة.

انفرد عياض في عمله بإكمال عملين سابقين عليه، أولهما كتاب المعلم للمازري السالف ذكره، والثاني "تقييد المهمل وتمييز المشكل"، لأبي علي الحسين الجياني (٤٩٨ هـ)[١٠٢]؛ إذا أفاد من هذا الأخير في دراسة العلل الواردة على أسانيد مسلم.

امتاز تفسير عياض لصحيح مسلم بجملة مميزات تجعله يبز المنهاج للنووي فيما بعد، وذلك باعتراف النووي ذاته في النقل عن عياض كثيرا.ومن تلك المزايا:

– الإلمام بالقضايا السندية والحديثية التي أوردها مسلم في صحيحه، ولم يعرج عليها المازري، وبرزت عارضة عياض في شرح هذه المقدمة لمكانته العالية في علم المصطلح، وكذا من خلال: الكلام على بعض الرجال والأسانيد والعلل غير القادحة الواقعة في بعضها مما أغفله الجياني دون التوسع والاستقصاء.

– شرح الأحاديث التي لم يتعرض لها المازري وهي كثيرة جدا، بحيث يندر أن نجد حديثا لم يشرح بعض ألفاظه إلا أن يكون مكررا، وذلك ببيان المعاني وضبط الألفاظ واستنباط الأحكام الفقهية والفوائد المختلفة، وبيان الغامض وتقييد المهمل والتنبيه على اختلاف ألفاظ الرواة، وكذا الاستدراك والتعقيب على السابقين[١٠٣].

– الاهتمام بالجمع بين الأحاديث المتعارضة، وتأويل مختلف الأحاديث إن تعذر الجمع.

– الاعتناء بالنواحي العقدية، والرد على الفرق المعارضة، ونحو ذلك في نواحي الصفات والعصمة وذلك في مثل حديث الصورة، "فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون"[١٠٤]. قال:مقابلة لفظ الصورة هنا التي المراد بها حق الله الصفة–على ما تقدم– للفظة الصورة الحقيقية الواردة في صفة الملك والمخلوق، وتجنيس اللفظ باللفظ كما قال تعالى: ﴿مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [١٠٥]. وقوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[١٠٦]. وقدد جاءت هذه اللفظة في البخاري: فيأتيهم الله في الصورة التي لا يعرفونها، وفي الصورة التي يعرفون "من غير إضافة، وهي أبين وأقرب لتأويل الصفة والصورة ترجع

في اللسان إلى معنى الصفة ومعنى الحقيقة. وإليه يرجع قوله: الصورة التي رأوه فيها أولا.أي علموا من تنزيهه وتقديسه، واعتقدوه من أنه لا يشبهه شيء، وقد زلّ من لم يحصل كلامه مما تقدم، فأثبت صورة لا كالصور، وهذا تناقض وتجسيم محض، نعوذ بالله"[١٠٧].

– توسع هذا الكتاب في قضايا التفسير وعلوم القرآن، مما يمكن أن يعتبر مرجعا ومصدرا في هذا الفن من العلوم الخادمة للقرآن الكريم.

– الاهتمام بالقضايا الفقهية وتوجيهها على مذهب الإمام مالك، مما يمكن عده أحد مراجع الفقه الملتصق بالدليل عكس المصنفات المالكية المتقدمة.

وبالجملة فهذا الكتاب يعد مرجعا أولا في شرح صحيح مسلم، وعليه بنى المتأخرون تفسيراتهم، فكلهم عالة عليه مثل النووي في المنهاج و الأبي الوشتاني(٨٢٧هـ)[١٠٨] في إكمال الإكمال.

وعلى الجملة فالكتاب دال على تميز المغاربة واعتزازهم بصحيح مسلم، حيث شرحه واحد وعشرون منهم، وعلق عليه خمسة، وألف في تفسير غريبه ثلاثة، وصنف حول رجاله استقلالا ثلاثة، ومع رجال الصحيح أربعة، واختصره ستة، وألف في زوائد على البخاري اثنان، وصنف في الجمع بينه وبين غيره اثنا عشر[١٠٩].

لقد أظهر عياض تميزا جديدا بالنظر في تفسيره لمسلم وهو وإن استدرك وأكمل معلم المازري إلا أن جهده في هذا الشرح الفريد يكاد يجعل الكتاب سامقا في الإحاطة بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، واستنباط الفوائد منها، ومزج الفقه بالدليل وبناء الصورة العقدية على مدلول السنة بدلا عن تمحلات المتكلمين وهو في النهاية تفسير حوى فنون اللغة والبلاغة والتفسير والفقه والأخلاق.

خامسا: الشروح المغربية للبخاري النهر الجاري

– اعتنى المغاربة بصحيح البخاري (٢٥٦ هـ) اعتناء عظيما، وخاصة في الأعصر المتأخرة، حيث اعتادوا قراءته سردا تعلما وتبركا، وكانت عادة الجزائريين بدأه يوم ٢٧ رجب وختمه ليلة ٢٧ رمضان، وتقام لذلك الأحفال وتوزع الصدقات.

وبذكر ابن مرزوق الجد[١١٠]: أن أكثر ما كان يقرأ بين يدي السلطان أبي الحسن المريني كتاب الجامع الصحيح لأبي عبد الله البخاري، فقد واضب على حفظه وروايته في المشاهد[١١١].

كان دخول صحيح البخاري إلى المغرب متقدما فقد نقله أبو الحسن القابسي (ت٤٠٣ هـ) إلى افريقية، ومن أوائل من نقله بعد الرحلة أبو محمد الأصيلي (ت ٣٩٢هـ).

تعددت تفاسير البخاري واختلفت مناهجها بين الشرح المختصر أو التفسير الواسع، أو التي اهتمت به رواية وسندا، وكذا التي اهتمت بغريبه، أو الجمع بينه وبين غيره، ومن أهم هاته الشروح التي تركت أثر من بعدها:

- كتاب النصيحة للإمام أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي (٤٤٩ هـ) وبه كانت الريادة في تفسير البخاري في كل العالم الإسلامي من نصيب الجزائريين. وهو الكتاب الذي نصر به مذهب مالك، ونقل عنه كثيرا ابن حجر في الفتح.

-كذلك أبو بكر بن العربي الحافظ (٥٤٣ هـ) الذي له شرح سماه، النيرين في الصحيحين.

- ومن الشروح التي اعتمدها ابن حجر في الفتح شرح ابن بطال القرطبي(٤٤٩هـ)، وكذلك شرح المهلب بن أبي صفرة المالكي[١١٢]، وكذا شرح ابن التين الصفاقسي (٦١١ هـ)[١١٣] الذي سماه "الخبر الفصيح الجامع لفوائد الجامع الصحيح".

كما اهتم به العلامة ابن مالك الجياني النحوي، صاحب ألفية النحو (٦٧٢ هـ)، وسماه: شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، وهو شرح اعتنى بالنواحي اللغوية والمشاكل الإعرابية في الصحيح.

وترك لنا العلامة الأصولي الشاطبي (٧٩٠ هـ) شرحا مهما سماه "المجالس" ولعله خلاصة لمحاضرات في الحديث، وصفه التنبكتي بقوله: "شرح فيه من الفوائد والتحقيقات ما لا يعلمه إلا الله".[١١٤] وترك ابن رشيد السبتي بدر الدين(٧٢١ هـ) تفسيرا انصب على شرح تراجم البخاري وما فيها من فوائد ومناسبات، وقد طبع في الهند[١١٥].

لكن أقدم الشروح المتداولة هو كتاب "بهجة النفوس"، لابن أبي جمرة الأندلسي (٦٩٩ هـ) والذي خدم البخاري، باختصاره ثم شرحه، وهذا الشرح الموجز كان له الأثر البليغ فمن بعده، حيث كان ابن أبي جمرة عمدة شراح البخاري بكثير النقل عنه والاستدراك عليه.

ومن أهم الشروح التي سارت مشرقا ومغربا شرح الإمام ابن مرزوق الحفيد التلمساني (٨٤٢ هـ)[١١٦] والذي كان مبرزا في علوم الحديث والفقه واللغة، وترك في علم الرواية كتاب "الروضة"، وخدم البخاري بجمع مكرراته بسفر سماه " أنوار الدراري في مكررات البخاري"، كما اهتم به دراسة وتدريسا ورواية وتحملا. وكان مرجع الجزائر في علوم الحديث، وتكفي شهادة تلميذة أبي الفرج التلمساني الذي وصفه بقوله: "فهو كان شيخنا الإمام عالما علما جامع شتات العلوم الشرعية والعقلية، ذو الدراية

والرواية والعناية ملازم السنة.. قرأت عليه التفسير والصحيحين والترمذي وأبا داوود والموطأ والعمدة....[١١٧]"

كان الحافظ ابن مرزوق مسندا محدثا من الطراز الرفيع، وقد خدم البخاري بشرح مهم سماه "المتجر الربيح والمسعى الرجيح، والمرحب الفسيح والوجه الصحيح والخلق السميح في شرح الجامع الصحيح."[١١٨]

تميز ابن مرزوق في شرحه هذا بإجادة اختصار مقاصد البخاري وتبويبه للصحيح، وهي طريقة مفردة قال فيها: "ومن أهم ما لم يذكروه جمع مقاصد الأبواب من كل كتاب من كتبه الكبيرة ككتاب الصلاة ونحوه، أو من أكثرها من ذلك الكتاب، ثم ينتقل إلى أبواب أخرى تشترك في معنى آخر من ذلك الكتاب كأنه فصل آخر منه، وتبيين المناسبة من تلك الأبواب والفصول ووجه الترتيب في تقديم بعضها على بعض، وغير ذلك من المحاسن.[١١٩]"

كما أفرد التراجم في أوائل الأبواب بتفاسير مفيدة، على اعتبار أن فقه البخاري في تراجمه وفي ذلك يقول: "وفي تراجم البخاري من الدقائق والأسرار ما عجز كل من أتى بعده عن استيفاء مقاصده في ذلك، وسنبينه في كل ترجمة على ما فتح الله به علينا"[١٢٠].

– التنبيه على نكت البخاري في تكرار الأحاديث، وأنه ليس تكرارا في الحقيقة، وإنما هو إفادات جديدة في تنويع السند أو الزيادة في الأحكام، أو تبيين انفراد الراوي وفير ذلك.

– الاعتماد على كتب اللغة ومعاجمها لتبيين دلالة الألفاظ، مثل كتاب الصحاح للجوهري،والمحكم لابن سيده، وكتب الإعراب كالصفا فقسي والشلوبين.

–الإفادة من شروح المغاربة السابقين كابن بطال في شرح البخاري، والقاضي عياض في كتاب مشارق الأنوار على صحاح الآثار.

–إدخال المباحث البلاغية في الحديث، ومن ذلك تعليقه على حديث عبادة بن الصامت في البيعة قوله: " وفي الحديث من البديع الجمع في المخاطبين والتقسيم في الموفي والمصيب المعاقب، والمصيب المستور، والطباق في الوافي والناقص والمعاقب والمنشور والعفو والعقوبة"[١٢١] .

– إدخال علم المقاصد في شروح الأحاديث، وهي مسألة مميزة لم يعرض لها كثيرون، ومن ذلك كلامه عن مقاصد الدين والنسل والنفس والمال في حديث البيعة السالف[١٢٢].

- الاهتمام بالقضايا العقدية من حيث المسند الحديثي لا الكلامي، وهي مسألة ظاهرة في سلفية الإمام، ومن ذلك تعاليقه العديدة على أحاديث كتاب الإيمان، ومن ذلك كلامه عن تفاضل أهل الإيمان وزيادته ونقصه، مع عدم إغفال المباحث المنطقية الداعمة لآرائه في بعض القضايا اللغوية والعقدية.

- إيراد القضايا الفقهية، وخاصة عن المراجع المالكية ككتب عياض أو المازري، أو ابن الحاجب (٦٤٦ هـ)، واستعانته بكتب الأصول كالمحصول للفخر الرازي (٦٠٦ هـ) وعرضه لآراء الفقهاء الآخرين مع تركيز على المدونات المالكية كرسالة ابن أبي زيد وواضحة ابن حبيب الأندلسي(٢٣٨ هـ).

- التعريف بالصحابة الرواة بإيجاز والعودة بذلك إلى مصادر تراجم الصحابة.

خاتمة:

إن تفسير الحديث الشريف في المغرب الإسلامي والأندلس مما يطول حبله، فهو تراث عريض يصعب حصره لتعدد المشارب وتنوع المناهج في خدمة السنة النبوية، إلا انه ينبغي التذكير بهذه الحقيقة، وهو أن المغرب وإن خلا من الرواية العالية كحال المشرق، فإنه لم يتخلف عن ركب تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم وخدمته، كما أن اغلب التفاسير والشروح كانت على موطأ الإمام مالك رحمه الله؛ وذلك لأن أهل المغرب في الغالب مالكية المذهب، ولكنهم لم يقصروا في شرح غيره، وخاصة صحيحي مسلم والبخاري الذين فاقت العناية بهم كل تصور، ويكفي التذكير بأن أول شرح للبخاري كان من نصيب المغاربة في كتاب النصيحة للداودي الجزائري، وكان أهم شرح لمسلم كتاب عياض السبتي المغربي المعروف بإكمال المعلم والذي نحا عليه من بعده، كما أن شرح ابن العربي المالكي للترمذي يعتبر متقدما ولم ينسج على منواله إلا المباركفوري الهندي في تحفة الأحوذي.

والدراسة المقدمة هي سطر في موسوعة كبيرة تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث خدمة لسنة الخاتم الأمين.

الهوامش:

[١]- سورة آل عمران الآية١٦٤.

[٢] -سورة النجم الآية ٣-٤

[٣] -سورة القلم الآية ٤.

[٤] -سورة النجم الآية١١.

[٥] -سورة التكوير الآية ٢٢.

[٦] – سنن الترمذي:كتاب العلم رقم٢٦٦٥/سنن أبي داوود رقم٣٦٦٠/ الخطيب البغدادي:شرف أصحاب الحديث.ت محمد سعيد خطيب أوغلي،نشر كلية الإلهيات أنقرة،ط دار إحياء السنة النبوية،١٩٧١. ص١٧.

[٧] –عقبة بن نافع الفهري القرشي،ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم،في صحبته خلاف،ولي فتح برقة وإفريقية والمغرب،استشهد في واقعة تهودة ببسكرة بالجزائر سنة٦٣هـ.بنى مدينة القيروان وجامعها الأعظم.انظر ابن الأثير عز الدين:أسد الغابة في معرفة الصحابة(ت خالد طرطوشي) ط١،بيروت،دار الكتاب العربي،٢٠٠٦. رقم٣٧٢٣ ج٣ص٣٧٢/ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة .بيروت ،دار إحياء التراث العربي د–ت.ج٤ص٥٢٧/ ابن عبد البر:الاستيعاب في أسماء الأصحاب،القاهرة،مكتبة مصر–د،ت–ج٣ص٥٩/ ابن خلدون عبد الرحمان :تاريخ ابن خلدون،ط١،بيروت،دار الكتب العلمية،١٩٩٢.ج٦ص١٢٧.

[٨] –انظر في فتح الأندلس :المقري:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .(ت يوسف البقاعي)ط١،بيروت،دار الفكر،١٩٩٨ج١ص١٨٧/ الطبري :تاريخ الأمم والملوك(ت نواف الجراح)ط١،بيروت،دار صادر،٢٠٠٣. ج٤ص١٢٩٧.

[٩] –البربر أمم كثيرة تسكن شمال لإفريقيا،دانوا بالوثنية والنصرانية قبل الإسلام، وهم ثلاث عصائب كبرى زناتة وصنهاجة ومصمودة. انظر ليون الإفريقي:وصف إفريقيا(ت محمد حجي)ط٢،بيروت،دار الغرب الإسلامي،١٩٨٣ ج١ص٣٥/تاريخ ابن خلدون ج٦ص١٨٤.

[١٠] –أبو العرب التميمي القيرواني:طبقات علماء إفريقية وتونس(ت علي الشابي ونعيم اليافي)، تونس، الدار التونسية للنشر١٩٨٥، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب. ص٩٣.

[١١] –يوسف حوالة: الحياة العلمية في إفريقية المغرب الأدنى منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ٩٠،٤٥٠هـ– منشورات جامعة أم القرى،مكة المكرمة،٢٠٠٠.ج١ص٢٠٢–٢١١.

[١٢] –انظر:المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد:رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضلائهم وأوصافهم.(ت بشير البكوش)–ط١،بيروت،دار الغرب الإسلامي.ص١٩٣٨.ج١ص٧٧.

[١٣] –ابن عذارى :البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،(ت ج.س كولان وليفي بروفنسال –٣أجزاء– وإحسان عباس– جزء٤– .بيروت،دار الثقافة–د،ت–ج١ص٤٥/عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية.ط١،تونس،دار سحنون، وبيروت،دار ابن حزم،٢٠٠٨. ص٢١.

[١٤] –إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر.ولاه عمر بن عبد العزيز القيروان فكان خير وال،توفي سنة١٣١ هـ.انظر:طبقات أبي العرب ص٨٤/ ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة،٢٠٠١.ج١ص١٦٠

[١٥] –الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية(ت أحمد عمر هاشم)ط١، بيروت، دار الكتاب العربي،١٩٨٥.ص٢٧.

[١٦] –محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري. المغرب، دار الثقافة. ص٩٦.

[١٧] –تهذيب التهذيب ج٤ص٣٦٠ / ابن سعد: الطبقات الكبرى،(ت محمد عبد القادر عطا) ط١ بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠. ج٦ص٢٥٧/المالكي: الرياض ج١ص٩٣..

[١٨] –تهذيب التهذيب ج١ص٥٠٣/طبقات ابن سعد ج ٥ص٣٩١/الرياض ج١ص٧٨/ الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨. ص٢٧٨/ البيان المغرب ج١ص١٢/طبقات أبو العرب ص٨١/نفح الطيب ج٣ص٢٨٩.

[١٩] – تهذيب التهذيب ج٣ص١٤٣/طبقات ابن سعد ج٥ص٢٧٨/ الذهبي شمس الدين:ميزان الاعتدال في نقد الرجال(ت علي محمد البجاوي).بيروت،دار المعرفة–د،ت. رقم٥٧١٦ ج٣ص٩٣/ ابن خلكان أبو العباس شمس الدين:وفيات الأعيان

وأنباء أبناء الزمان (يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل)ط١،بيروت،دار الكتب العلمية،١٩٩٨.ج٣ص٣٦٥/ الذهبي شمس الدين:سير أعلام النبلاء(اعتناء محمد بن عيادي بن عبد الحليم).ط١،القاهرة ،مكتبة الصفا،٢٠٠٣. ج٥ص١٢/الرياض ج١ص٩٣/طبقات أبي العرب ص٨٣.

[٢٠] -تهذيب التهذيب ج٢ص٥٠٥/الرياض ج١ص٩٦/طبقات أبي العرب ص٩٥.

[٢١] - تهذيب التهذيب ج٢ص٤٠٢/ طبقات أبي العرب ص١٠٧/الرياض ج١ص١١٣/ عياض القاصي :ترتيب المدارك وتقريب المسالك(ت محمد سالم هاشم) ،ط١بيروت دار الكتب العلمية ،١٩٩٨. ج١ص١٩٤.

[٢٢] -في ترجمة ابن القاسم العتقي شيخ المدرسة المصرية المالكية انظر:ترتيب المدارك ج١ص٢٥٠/الديباج المذهب ج١ص٤٠٠/ مخلوف محمد :شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،بيروت ،دار الفكر –د،ت.رقم٢٤ج١ص٥٨/سير أعلام النبلاء ج٦ص٣٦٧/ ابن العماد الحنبلي :شذرات الذهب في أخبار من ذهب،بيروت،دار إحياء التراث العربي،د- ت. ج١ص٣٢٩

[٢٣] -القاضي عياض: ترتيب المدارك ج ١ص٢٥.

[٢٤] -ابن خلدون المقدمة ص٤٢٠.

[٢٥] -انظر في ترجمته :ترتيب المدارك ج١ص١٨٥/طبقات أبي العرب ص٢٢٠/الديباج ج٢ص٧٢/شجرة النور رقم٣٣ج١ص٦٠/الرياض ج١ص١٥٨.

[٢٦] - انظر في ترجمة البهلول : ترتيب المدارك ج١ص١٨٨/طبقات أبي العرب ١٢٦/ ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب(ت محمد الأحمدي أبو النور)ط٢،القاهرة،مكتبة دار التراث، ٢٠٠٥. ج١ص٢٨٠/ رقم٣٤ج١ص٦٠/الرياض ج١ص٢١٦.

[٢٧] - ترتيب المدارك ج١ص١٩٩/الديباج ج٢ص١٠٧/شجرة النور رقم٤٣ ج١ص٦٣/ الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨. ص٣٢٤.

[٢٨] - في ترجمة الليثي انظر: ترتيب المدارك ج١ص٣١٠/ الديباج ج٢ص٢٨١/ تهذيب التهذيب ج٤ص٣٩٩/ شجرة النور رقم٤٦ج١ص٦٣/بغية الملتمس ص٥١٥/ جذوة المقتبس ص٣٨٢/ وفيات الأعيان ج٥ص١١٧/ شذرات الذهب ج٢ص٨٢.

[٢٩] -في ترجمة أسد بن الفرات انظر: ترتيب المدارك ج١ص٢٧٠/ طبقات أبي العرب ص١٦٣/ الرياض ج١ص١٧٢/ الديباج المذهب ج٢ص٢٧١/ شجرة النور رقم٧٣ج١ص٦٢/ محمد الفاضل بن عاشور:أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي ص٢٧.

[٣٠] - في ترجمة سحنون انظر: ترتيب المدارك ج١ص٣٣٩/ الرياض ج١ص٢٤٩/ الديباج ج٢ص٢٤/ شجرة النور رقم٨٠ج١ص٦٩.

[٣١] -محمد إبراهيم علي: اصطلاح المذهب عند المالكية ط٢، دبي، دار البحوث. ٢٠٠٢ص١١٧.

[٣٢] -محمد بن حسن شرحبيلي: تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي. المغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٠. ص٣٨٤.

[٣٣] -المجدوب: الصراع المذهبي بإفريقية ص٦٩/ نجم الدين الهنتاتي: المذهب المالكي بالغرب الإسلامي، إلى منتصف القرن الخامس الهجري. تونس، مكتبة تبر الزمان، ٢٠٠٤. ص١١٤.

[٣٤] -المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ج٢ص١٨٧.

[٣٥] -في ترجمة بقي بن مخلد: بغية الملتمس ص٢٤٥/جذوة المقتبس ص١٧٧/ سيرأعلام النبلاء ج٨ص٤٩٠.

[٣٦] -انظر نفح الطيب ج٢ص١٩١/ جذوة المقتبس ص٣٨٤

[٣٧] -نفح الطيب ج٢ص٢٦٦/ بغية الملتمس ص١٢٣/ وفيات الأعيان ج٤ص١٠٧/ شذرات الذهب ج٣ص٣٩٢.

[٣٨] -في ترجمة ابن حزم ومعاركه انظر: وفيات الأعيان ج٣ص٢٨٤/ سير أعلام النبلاء ج١١ص٩٠/ نفح الطيب ج٢ص٢٣٨/ جذوة المقتبس ص٣٠٨/ بغية الملتمس ص٤١٥/ شذرات الذهب ج٣ص٢٩٩.

[٣٩] -انظر مناظرات في أصول الشريعة بين ابن حزم والباجي، عبد المجيد تركي. ط٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤ ص١٣-١٩.

[٤٠] -الحجوي الثعالبي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي. ط١،بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥. ج٣ص٤٤.

[٤١] -المركشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب. ط١، صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٩٦. ص١٣١.

[٤٢] -إحراق الكتب في المغرب له سوابق كما حصل مع إحياء علوم الدين للغزالي، وكتب ابن ارشد الحفيد فيما بعد. انظر: المراكشي:المعجب ص٢٢٤/ أنخل جنتالت بالنتيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ت حسين مؤنس) ط٢، القاهرة، دار الثقافة الدينية،٢٠٠٨. ص٤٠٢.

[٤٣] - المركشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٠٢.

[٤٤] -عياض: ترتيب المدارك ج١ص١٠٢/أبو زهرة: مالك حياته وعصره . ط٢، القاهرة، دار الفكر العربي. ص١٦٦.

[٤٥] - الحجوي الثعالبي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ج٣ص٤٠٦.

[٤٦] -انظر: الديباج المذهب ج٢ص٧/ بغية الملتمس ص٣٧٧/ جذوة المقتبس ص٢٨٢/ سير أعلام النبلاء ج٨ص٤٩.

[٤٧] -الديباج ج١ص٤١٥/ شجرة النور ج١ص١١١/ بغية الملتمس ص٣٧١/ جذوة المقتبس ص٢٧٨.

[٤٨] -الديباج المذهب ج١ص١٥٤/عادل نويهض :معجم أعلام الجزائر.ط٢،بيروت،دار نويهض،١٩٨٠ ص١٤١.

[٤٩] -الديباج المذهب ج٢ص٢٣٨/

[٥٠] -انظر: الديباج ج٢ص١٩٨/ شجرة النور رقم٤٠٨ج١ص١٣٦/ سير أعلام النبلاء ج١١ص٣٩٣/ وفيات الأعيان ج٤ص١١٦/ شذرات الذهب ج٤ص١٤١.

[٥١] -محمد شرحبيلي: تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ص٢٤٨.

[٥٢] -سير أعلام النبلاء ج١٠ص٣٩٢/شجرة النور رقم٢٣٠ج١ص٩٧.

[٥٣] -الديباج ج١ص٣٧٤/بغية الملتمس ص٣٤٠/شجرة النور رقم٢٥١ج١ص١٠٠.

[٥٤] -يوسف الكتاني: مدرسة الإمام البخاري بالمغرب. بيروت، دار لسان العرب-د،ت- ج١ص٣٠.

[٥٥] -في ترجمة ابن بطال انظر: ترتيب المدارك ج٢ص٣٦٥/الديباج ج٢ص٨٣/ شجرة النور رقم ٣١٦ج١ص١١٥/ سير أعلام النبلاء ج١١ص٣٣/شذرات الذهب ج٣ص٢٨٣.

[٥٦] -في ترجمة بن أبي جمرة انظر التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج(ت محمد عمر)، ط١، القاهرة، دار الثقافة الدينية، ٢٠٠٤، ج١ص١٦٢/كحالة رضا: معجم المؤلفين، ط١، بيروت، دارالرسالة، ١٩٩٣. ج٢ص٢٣٤.

[٥٧] -ابن خلدون :المقدمة (ت درويش الجويدي) ط٢. صيدا. المكتبة العصرية.١٩٩٧.ص٤١٤.

[٥٨] -الحسين شواط: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض. ط١، السعودية،دار ابن عفان،١٩٩٣ . ص٨٨

[٥٩] -المصدر نفسه ص ٩١.

[٦٠] -شذرات الذهب ج٤ص٣٤٢/ معجم المؤلفين ج١ص٤٤٣.

[٦١] -شجرة النور رقم١٩٤ج١ص٢٦٦/معجم أعلام الجزائر ص١٨٠/معجم المؤلفين ج٣ص٧٨١.

[٦٢] - شجرة النور رقم ٣٨١/ج١ص١٣٠/الصلة ج١ص٢٩٣.

[٦٣] -انظر:بغية الملتمس ص١٢٣/وفيات الأعيان ج٤ص١٠٧/سير أعلام النبلاء ج١١ص٣٨٨/معجم المؤلفين ج٣ص٥٨٣.

[٦٤] - أبو العرب:طبقات علماء إفريقية ص١٢٦ /ترتيب المدارك ج١ص١٨٥

[٦٥] -انظر: الديباج ج١ص٢٦٨/شجرة النور رقم١١٢ج١ص٧٥/ترتيب المدارك ج١ص٤٤٨.

[٦٦] - عياض: ترتيب المدارك ج١ص٤٤٨/ وانظر مصطفى الهروس: المدرسة المالكية الأندلسية ص١١٥.

[٦٧] - الحميدي: جذوة المقتبس ص١٢١/ بغية الملتمس ص١٧٥.

[٦٨] -نفح الطيب ج٢ص٢١٦/معجم أعلام الجزائر ص٥٩

[٦٩] - الحميدي: جذوة المقتبس ص٨٨/ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب ج١ص٢٣٩.

[٧٠] -ابن العربي: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي–المقدمة –، بيروت ،دار الكتب العلمية. ج١ص٥.

[٧١] -في المدارس المالكية انظر: محمد إبراهيم علي : اصطلاح المذهب عند المالكية، ص ٦٢-٧٠.

[٧٢] - ابن العربي: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ج١ص٥/ شجرة النور ج١ص٢١/الفكر السامي ج٢ص٤٠٧.

[٧٣] - عياض: ترتيب المدارك ج١ص١٠٥.

[٧٤] - الحسين شواط: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض ص١٦٩.

[٧٥] - في ترجمة ابن عبد البر: ترتيب المدارك ج٢ص٣٥٢/الديباج ج٢ص٢٩٥/بغية الملتمس ص٤٨٩/جذوة المقتبس ص٣٦٧/سير أعلام النبلاء ج١١ص٧٥/شجرة النور رقم٣٣٧ج١ص١١٩/شذرات الذهب ج٣ص٣١٤/معجم المؤلفين ج٤ص١٧٠/

[٧٦] - عياض: ترتيب المدارك ج٢ص٣٥٢.

[٧٧] -ابن عبد البر: التمهيد لما في الموطأ من المعني والأسانيد (ت شهاب الدين أبو عمرو)، ط١، بيروت، دار الفكر،٢٠٠٢. ج١ص١٠.

[٧٨] -إحسان عباس: رسائل ابن حزم الأندلسي ج٢ص١٧٩.

[٧٩] -ابن عبد البر: كتاب الكافي في فقه أهل المدينة–مقدمة المحقق محمد ولد ماديك الموريتاني–ط٢، الرياض، دار الريض الحديثة، ١٩٨٠.ج١ص١٠٠-١٠١.

[٨٠] انظر في ترجمة ابن رشد: سير أعلام النبلاء ج١١ص٥٩٢/الديباج ج٢ص٢٠٢/شذرات الذهب ج٤ص٣٢٠.

[٨١] -في ترجمة الباجي انظر:ترتيب المدارك ج٢ص٣٤٧/الديباج ج١ص٣٣٠/سير أعلام النبلاء ج١١ص٢٧٦/شذرات الذهب ج٣ص٣٣٤/وفيات الأعيان ج٢ص٣٤٠/نفح الطيب ج٢ص٢٣١/معجم المؤلفين ج١ص٧٨٨.

[٨٢] - عياض: ترتيب المدارك ج٢ص٣٤٨

[٨٣] -في نكبة ابن حزم انظر:تاريخ الفكر الأندلسي ص٢٥٤

[٨٤] -الباجي: المنتقى في شرح الموطأ. ط١، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٣٢هـ ج١ص٢-٣.

[٨٥] -في ترجمة العتبي انظر: ترتيب المدارك ج١ص٤٤٩/جذوة المقتبس ص٣٩/بغية الملتمس ص٤٨.

[٨٦] -أنخل بالنتيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص٤٧٨.

[٨٧] -الشاذلي النيفر: مقدمة كتاب المعلم بفوائد مسلم للمازري .ط١، تونس، الدار التونسية للنشر١٩٨٧.ص١٨٤.

[٨٨] -في ترجمة الإمام المازري راجع :الديباج ج٢ص١٩٦/شجرة النور رقم٣٧١ج١ص١٢٧/سير أعلام النبلاء ج١٢ص٥٧/وفيات الأعيان ج٤ص١٠٩/شذرات الذهب ج٤ص١١٤/معجم المؤلفين ج٣ص٥٢٥.

[٨٩] – الحسين شواط: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض ص١١٩

[٩٠] -الشاذلي النيفر: المازري الفقيه المتكلم تونس،دار بوسلامة،١٨٩٢.ص٨٨.

[٩١] -ابن فرحون: الديباج المذهب ج٢ص١٩٧.

[٩٢] -المازري: المعلم بفوائد مسلم.ص٢٧٠-٢٧٤.

[٩٣] -انظر: الحسيني عبد المجيد هاشم:الإمام البخاري محدثا وفقيها.صيدا،منشورات المكتبة العصرية.ص١٢٢.

[٩٤] -الشاذلي النيفر: مقدمة كتاب المعلم للمازري ص٢٤١.

[٩٥] -صحيح مسلم:كتاب الإيمان رقم ١٠٤ /المازري: المعلم ص٣٠٤.

[٩٦] – المازري: المعلم بفوائد مسلم ص٣٣٩

[٩٧] -صحيح مسلم: كتاب الإيمان رقم٥٧/صحيح البخاري :كتاب الأشربةرقم٥٥٧٨.

[٩٨] – المازري: المعلم بفوائد مسلم ص٢٩٤.

[٩٩] – الحسين شواط: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض ص١٢١.

[١٠٠] – ابن خلدون: المقدمة ص٤١٤-٤١٥.

[١٠١] -في ترجمة عياض انظر: الديباج ج٢ص٣٦/ شجرة النور رقم٤١١ج١ص١٤٠/ وفيات الأعيان ج٣ص٤٢٤/ شذرات الذهب ج٤ص١٣٨/ سير أعلام النبلاء ج١٢ص١١٥/ والترجمة الواسعة لابنه محمد بن عياض في التعريف به.

[١٠٢] -في ترجمة الجياني انظر: الديباج ج١ص٢٩٣/بغية الملتمس ص٢٦٥/سير أعلام النبلاء ج١١ص٤٠٣/وفيات الاعيان ج٢ص١٥٤/شذرات الذهب ج٨ص٤٠٨/معجم المؤلفين ج١ص٦٣٣.

[١٠٣] – الحسين شواط: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض ص١٦٨.

[١٠٤] -صحيح مسلم: كتاب الإيمان رقم١٨٢/صحيح البخاري:كتاب الرقاق رقم٦٥٧٣.

[١٠٥] -سورة البقرة الآية ١٤-١٥.

[١٠٦] -سورة آل عمران الآية ٥٤.

[١٠٧] -القاضي عياض: إكمال المعلم ص٨٣٢.

[١٠٨] -في ترجمة الأبي الوشتاني انظر: شجرة النور رقم ٨٧٤ج١ص٢٤٤/معجم المؤلفين ج٣ص٢٧٨.

[١٠٩] – الحسين شواط: منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض ص٤٠٦.

[١١٠] -في ترجمة ابن مرزوق الجد انظر: الديباج ج٢ص٢٢٨/كفاية المحتاج ج٢ص٨٩/شجرة النور رقم٨٤٨ج١ص٢٣٦/شذرات الذهب ج٦ص٢٧١.

[١١١] -ابن مرزوق الخطيب: المسند الصحيح الحسن من مآثر مولانا أبي الحسن. الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والكتاب.ص١٥٠.

[١١٢] -في ترجمة ابن أبي صفرة انظر:الديباج ج٢ص٢٧٦/ سير أعلام النبلاء ج١٠ص٦٠٨/شجرة النور رقم٣١١ج١ص١١٤.

[١١٣] -في ترجمة ابن التين انظر: كفاية المحتاج ج١ص٢٢٩/شجرة النور رقم ٥٢٨ج١ص١٦٨.

[١١٤] -كفاية المحتاج ج١ص٩١/شجرة النور رقم٨٢٨ج١ص٢٣١.

[١١٥] -الكتاني: مدرسة البخاري في المغرب ج٢ص٥٧٣.

[١١٦] -في ترجمة ابن مرزوق الحفيد انظر:كفاية المحتاج ج٢ص١٣٧/شجرة النور رقم٩١٨ج١ص٢٥٣/معجم أعلام الجزائر ص٢٩٠.

[١١٧] -التنبكتي: كفاية المحتاج ج٢ص١٤٠.

[١١٨] -ابن مرزوق: المتجر الربيح.(ت حفيظة بلميهوب)ط١،الجزائر،دار التنوير ،٢٠١١.ج٢ص٢٧٤.

[١١٩] -المصدر السابق ج١ص٢٢٦.

[١٢٠] -نفسه:المقدمة ج١ص١٠.

[١٢١] -المصدر السالف ج٢ص٣٤٥

[١٢٢] -المصدر نفسه ج٢ص٣١٤-٣١٩.



المدونة للإمام سحنون

عبد الكريم الهواوي
باحث مغربي

لما كانت المدونة هي نسخة منقحة عن الأسدية، فقد لزمنا التعرض لترجمة الإمام أسد بن الفرات، ثم ترجمة الإمام سحنون بن سعيد.

ترجمة أسد بن الفرات:

هو أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم بن قيس، كنيته أبو عبد الله. قال أبو العرب: أوله من خراسان من نيسابور. وولد بحرّان من ديار بكر سنة (١٤٢هـ).

دخل القيروان مع أبيه في جيش ابن الأشعث (سنة ١٤٤هـ) وهو ابن سنتين، ثم رحلوا إلى تونس، وبعدما حفظ القرآن اختلف إلى علي بن زياد، فلزمه وتفقه بفقهه، ثم رحل إلى المشرق سنة (١٧٢هـ)، فلقي مالكا وواظب عليه. وسمع منه الموطأ وغيره، ثم ذهب إلى العراق فلقي أبا يوسف ومحمد بن الحسن،وغيرهما، ثم رحل بعد وفاة مالك إلى مصر، فلقي ابن القاسم وكتب عنه الأسدية، وقدم بعدها إلى القيروان.

ولي قضاء القيروان سنة (٢٠٣هـ)، ثم إمارة الجهاد لغزو صقلية مع ولاية القضاء، وتوفي وهو محاصر لها من جراء جراحات أصابته سنة (٢١٣هـ) ودفن هناك(١).

ترجمة سحنون:

هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخي. يكنى أبا سعيد، ويلقب بسحنون، وهو بفتح السين على قول الجمهور، وسمي سحنون باسم طائر حديد، لحدته في المسائل.

صليبة من العرب أصله شامي من حمص، قدم به أبوه سعيد في جند حمص إلى القيروان، وبها أخذ العلم من مشايخها: أبي خارجة وبهلول، وعلي بن زياد، وابن غانم، وابن أشرس، وغيرهم.

---

(١) مصادر الترجمة: ترتيب المدارك: ٣/٢٩١، الديباج: ١/٣٠٥، رياض النفوس ١/٢٤٥ (١٠٤).

ثم رحل إلى مصر والحجاز فسمع من ابن القاسم، وابن وهب، وأشهب، وسفيان بن عيينة، ووكيع، وعبد الرحمن بن مهدي، وأبي داود الطيالسي، ويزيد بن هارون، وابن نافع الصائغ، ومعن بن عيسى، وابن الماجشون، وغيرهم.

ثم انصرف إلى إفريقية سنة (١٩١هـ). ثم ولي القضاء بها سنة (٢٣٤هـ)، وسنه إذ ذاك (٧٤) سنة، فلم يزل قاضياً إلى أن مات سنة (٢٤٠هـ)، ومولده سنة (٢٦٠هـ) [١].

أصل المدونة:

المدونة هي نسخة منقحة من الأسدية لأسد بن الفرات، ولتبيان ذلك نقسم حديثنا إلى قسمين:

الأول: الأسدية

تنسب الأسدية إلى أسد ابن الفرات، وقصة تأليفها أنه ورد على الإمام مالك بعدما أخذ عن علي بن زياد وغيره بتونس، فقرأ عليه وسمع منه الموطأ وغيره، ثم ذهب إلى العراق، ويذُكَر في سبب ذهابه إلى العراق أنه قال: "كان ابن القاسم وغيره يجعلونني أسأل مالكا، فإذا أجابني قالوا: قل له: فإن كان كذا وكذا؟ فضاق علي يوما، وقال: هذه سلسلة بنت سليسلة، إن كان كذا كان كذا! إن أردت فعليك بالعراق"[٢].

ولما قدم العراق لقي أبا يوسف، فأخذ عنه موطأ مالك، ولقي محمد بن الحسن، وأسد بن عمرو، وغيرهم. واختص بمحمد بن الحسن، ولزمه حتى أصبح من المناظرين من أصحابه، وزامله في سفرته إلى مكة، لمكانته عنده.

فلما مات الإمام مالك قدم إلى مصر وأتى إلى ابن وهب، فناوله مسائل أبي حنيفة، "وسأله أن يجيب فيها على مذهب مالك. فتورع ابن وهب وأبى. فذهب إلى ابن القاسم فأجابه إلى ما طلب"[٣].

فكان يجيبه فيما حفظ عن مالك بقوله، وفيما شك فيه يقول: أخال وأحسب وأظن، وأحيانا يجيبه باجتهاده علىً أصل قول مالك.

---

[١] مصادر الترجمة: ترتيب المدارك ٤/٤٥ ، الديباج: ٢/٣٠ ، رياض النفوس: ١/٣٤٥ (١٢٦)، التعريف بالرجال المذكورين في جامع الأمهات لابن الحاجب ٢٣٠.

[٢] ترتيب المدارك: ٣/٣٩٢. وفي رياض النفوس: "إن أحببت الرأي فعليك بالعراق"١/٢٥٦.

[٣] ترتيب المدارك: ٣/٢٩٦.

وظل أسد يسأله كل يوم، حتى دون عنه ستين كتاباً، فسميت بالأسدية، فطلبها أهل مصر ودونوها عنه.

ثم أتى إلى القيروان فدونها عنه الناس، وحصلت له بها رئاسة كبيرة، فأنكر عليه بعضهم ما في جوابها من الظن، وخلوها من الآثار، فقالوا: جئتنا بأخال وأظن وأحسب، وتركت الآثار وما عليه السلف. فقال: "لقد كنت أسأل ابن القاسم عن مسألة فيجيبني فيها، فأقول له: هو قول مالك؟ فيقول: كذا أخال وأرى، وكان ورعاً يكره أن يهجم على الجواب"[١].

الثاني: كتابة المدونة:

أخذت الأسدية مكانها من مجالس العلوم، وغدت حديث الناس في مواطن الدرس، فطلبها سحنون، فمنعها منها أسد[٢]، فتلطف سحنون حتى وصلت إليه، ثم ارتحل سحنون بالأسدية إلى ابن القاسم سنة (١٨٨هـ) [٣] فعرضها عليه، فأخذها منه، ونظر إليها وتصفحها، فقال: "فيها شيء لا بد من تغييره، وضرب على كثير منها، وأبدل كثيرا"[٤]، وقد ساعد ابن القاسم على هذا العمل أن سحنون كان إماما في الفقه، فهذب ابن القاسم المدونة معه، فأسقط منها ما كان يشك فيه من قول مالك، وأجابه فيه على رأيه، لأنه كان أملاها على أسد من حفظه، واستدرك فيها أشياء كثيرة.

ولما كملت على هذا النحو، رجع بها سحنون إلى القيروان في سنة (١٩١هـ) وأشاعها.

مصير الأسدية:

لما كتب سحنون ما كتب عن ابن القاسم، وحدث ما حدث في الأسدية من تغيير، أرسل ابن القاسم إلى أسد: " أن عارض كتبك بكتب سحنون، فإني رجعت عن أشياء مما رويتها عني"[٥].

فأخذت أسدا الأنفة، وكبر عليه أن يعود عما كتبه، وأبي إباء شديدا.

---

[١] ترتيب المدارك: ٣/٢٩٨.

[٢] كذا في ترتيب المدارك: ٣/٢٩٨ ولكن لم يذكروا سبب المنع، غير ما قد يتبادر من أصل التمنع لدى أسد في عرض الأسدية، أو تحفظا من أسد لمكانة سحنون الفقهية. وقد ذكر صاحب المدارك أيضا أن سحنون سمع منه هو وأصحابه المعروفون به كتب أبي حنيفة ٣/٣٠٢. وفي مواهب الجليل: "وكتبها عنه سحنون" ثم قال معقبا "كذا قال في التبيهات وقال في المدارك منعها أسد من سحنون..." ١/٤٧. وفي التعريف "وكتبها عنه سحنون" ٢٣٣.

[٣] التعريف ص: ٢٣٣.

[٤] ترتيب المدارك: ٣/٢٩٨. أخبار علماء إفريقية ص: ٢٧١.

[٥] ترتيب المدارك: ٣/٢٩٩.

فأهملت الأسدية بعد ذلك وانهمدت شعلتها، وتوقف الاشتغال بها، وانتشر ذكر المدونة في الآفاق، "وعول الناس عليها وأعرضوا عن الأسدية، وغلب عليها اسم سحنون»[١].

ومع ذلك فإن لبعض العلماء جهودا تذكر عليها[٢].

انتشار المدونة:

كما سبق فإن المدونة اشتهرت وأخذت محل الأسدية، بل إنها أربت عليها وفاتتها، قال الشيرازي: «واقتصر الناس على التفقه في كتب سحنون... ونسيت الأسدية»[٣].

وهناك عدة عوامل أدت لانتشار المدونة وإهمال الأسدية، منها:

١–اعتماد ابن القاسم للمدونة وأمره أسد بن الفرات بالرجوع إليه، وبالأحرى غيره ممن أخذها عنه.

٢–تداول أفكار أربعة من كبار الأئمة عليها، وهم مالك، وابن القاسم، وأسد، وسحنون،[٤] مع كثرة مدارستها والاهتمام بشأنها، والتحري في كتابتها في المرة الثانية من طرف ابن القاسم وسحنون، "فالمدونة... هي ثمرة جهود ثلاثة من الأئمة: مالك بإجاباته، وابن القاسم بقياساته وزياداته، وسحنون بتنسيقه وتهذيبه وتبويبه، وبعض إضافاته"[٥].

٣– منهج سحنون في كتابة الكتاب الذي كان يألفه المالكيون، بخلاف منهج أسد، فإنه كان متأثرا بطريقة العراقيين، ولذلك عابه بعضهم على تلك الطريقة كما سبق.

٤– التبويب والتهذيب وترتيب المسائل في المدونة، قال في التعريف: «ورجع بها إلى القيروان في سنة إحدى وتسعين ومائة، وهي في التأليف على ما جمعه أسد أولا غير مرتبة المسائل، ولا مرسمة التراجم، فرتب سحنون أكثرها، وبوبها على تبويب التصانيف"[٦] وبقيت أصول على اختلاطها في السماع لم يمهله الزمن لترتيبها وتبويبها؛ ولأجل ذلك تسمى المدونة والمختلطة.

---

[١] رياض النفوس: ١/٢٦٣.

[٢] منها: مختصر الأسدية: لأبي زيد ابن أبي الغمر (ت ٢٣٤هـ)، مختصر الأسدية: للبرقي(ت ٢٤٥هـ)، مختصر الأسدية: لمحمد بن عبد الحكم (ت٢٦٨هـ)، اختصار الأسدية: لأبي بكر الأبهري (ت٣٧٥هـ).

[٣] ترتيب المدارك: ٣/٢٩٩.

[٤] مواهب الجليل ١/٤٧.

[٥] محاضرات في تاريخ المذهب المالكي الجيدي ص: ١٧٧.

[٦] التعريف ص: ٢٣٣– ٢٣٤.

والكتب المختلطة في المدونة هي: الصيد، الذبائح، الحج الثالث، الأقضية، الشفعة، القسمة، الغصب، حريم البئر، الرهون، اللقطة، الضوال، الوديعة، العارية، الهبات، الجراحات، السرقة، المحاربين، الرجم، القذف، الديات.

وقد قام أبو المشتري سليمان بن عبد الله (ت ٣٣٥هـ) بتبويب الكتب المختلطة في المدونة[(١)].

٥- التحلية بالآثار والشواهد والنقول، قال في التعريف"واحتج لبعض مسائلها بالآثار من روايته من موطإ ابن وهب وغيره[(٢)]، وبقيت منها بقية لم يتم فيها سحنون هذا العمل"[(٣)].

٦- أنها جمعت آخر قول مالك، وحادت عما شك فيه ابن القاسم، فهي بمثابة النسخة الأخيرة المصححة.

٧- ذكر خلاف كبار أصحاب مالك، قال الشيرازي: «ونظر فيها سحنون نظرا آخر فهذبها وبوبها ودونها، وألحق فيها من خلاف الأصحاب ما اختار ذكره، وذيل أبوابها بالحديث والآثار"[(٤)].

٨- أثر تلاميذ سحنون في نشر المدونة، فقد كان له تلاميذ كثر، نشروا علمه بين الناس، أما أسد بن الفرات فلم يكن له من التلاميذ ما لسحنون، لاشتغاله بالقضاء والجهاد.

٩- ذكر الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور أن من بين الأسباب التي أدت إلى رفض المالكية للأسدية هو أنها لما بنيت "على إدراج مذهب على مذهب آخر، فقد وقع فيها من الاختلاط في الأقوال، والاختلال في عزوها أمور جاءت قادحة فيما يطلب في كتب الأحكام من الصحة المطلقة"[(٥)].

وهذا السبب له أهمية بالغة، فإن صحة ودقة المتون مما يلح عليه أهل هذا الشأن.

١٠-مكانة سحنون العلمية، فإنه كان إماما في الفقه، بصيرا بالرواية، قال ابن حارث: "قدم سحنون بمذهب مالك، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف والانقباض، فبارك الله فيه للمسلمين، فمالت إليه الوجوه، وأحبته القلوب، وصار زمانه كأنه مبتدأ قد انمحى ما قبله"[(٦)].

---

(١) ترتيب المدارك: ١٤٦/٦.

(٢) منهم موطأ علي بن زياد ومصنف وكيع وجامع الثوري وغيرهم.

(٣) التعريف ص: ٢٣٣- ٢٣٤. وفي النفس شيء من حبكة العبارة الأخيرة.

(٤) التعريف ص: ٢٣٣- ٢٣٤.

(٥) أعلام الفكر الإسلامي ٢٧ عن اصطلاح المذهب ص: ١١٩.

(٦) الديباج ٣٣/٢

وقال أبو العرب: "كان سحنون ثقة حافظاً للعلم فقيه البدن اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره: الفقه البارع والورع الصادق والصرامة في الحق والزهادة في الدنيا والتخشن في الملبس والمطعم والسماحة"(١).

محتوياتها:

احتوت المدونة على ست وثلاثين ألف مسألة قال عياض: «ذكر بعضهم أن مسائل المدونة ست وثلاثون ألف مسألة». وزاد ابن فرحون (ت٧٩٩هـ) مائتين، قال: «في المدونة ستا وثلاثين ألف مسألة ومائتين منها أربع ممحوة»، وزاد الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور على هذا العدد فأوصلها إلى أربعين ألفا

وهذه المسائل تتوزع على الكتب التالية: كتاب الوضوء، والصلاة، والجنائز، والصيام، والاعتكاف بغير صوم، والزكاة، والحج، والجهاد، والصيد، والذبائح، والضحايا، والعقيقة، والنذور، وطلاق السنة، والأيمان بالطلاق، والنكاح ، وإرخاء الستور، والتخيير والتمليك، والرضاع، والظهار، والإيلاء، واللعان، والاستبراء، والعتق، والمكاتب، والتدبير، وأمهات الأولاد، والولاء والمواريث، والمواريث، والصرف، والسلم، والآجال، والبيوع الفاسدة، والبيعين بالخيار، والمرابحة، والغرر، والوكالات، والعرايا، والتجارة إلى أرض العدو، والتدليس بالعيوب، والصلح، وتضمين الصناع، والجعل والإجارة، وكراء الرواحل والدواب، وكراء الدور والأرضين، وكراء الأرضين، والمساقاة، والجوائح، والشركة، والقراض، والأقضية، والشهادات، والدعوى، والمديان، والتفليس، والمأذون له في التجارة، والكفالة والحمالة، والحوالة، والرهن، والغصب، والاستحقاق، والشفعة، والقسمة، والوصايا، والهبات، والهبة، والحبس والصدقة، والصدقة، والوديعة، والعارية، واللقطة والضوال، والآبق، وحريم الآبار، والحدود في الزنا والقذف، والرجم، والأشربة، والسرقة، والمحاربين، والجراحات، والجنايات، والديات.

وفي بعض هذه الكتب تجد فيها الأول، والثاني، والثالث أحيانا.

اعتمادها:

للمدونة قيمة عليا عند المالكية، وأهمية كبرى، وهذا أشهر من أن ينبه عليه، وقد ذكرنا فيما سبق من الأسباب التي دعت إلى إهمال الأسدية واعتماد المدونة، وأهم ما نذكر به هنا من الأسباب، هي أنها جمعت أقوال مؤسس المذهب وأقوال أصحابه الكبار على وجه التحري والدقة والضبط، فصارت بذلك مرجع المالكيين في الفقه، حتى سموها الأم والكتاب؛ لمنزلتها الرفيعة، قال الحطاب: « المدونة أشرف ما

(١) الديباج ٢/٣٢.

ألف في الفقه من الدواوين، وهي أصل المذهب وعمدته»[١]، وقال أبو الوليد بن رشد (ت٥٢٠هـ): «أصل علم المالكيين، وهي مقدمة على غيرها من الدواوين بعد موطإ مالك رحمه الله، ويروى أنه ما بعد كتاب الله أصح من موطإ مالك، ولا بعد الموطإ ديوان في الفقه أفيد من المدونة، هي عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو، وككتاب إقليدس عند أهل الحساب، وموضعها في الفقه موضع أم القرآن من الصلاة، تجزئ من غيرها ولا يجزئ غيرها منها»[٢].

ونظرا لهذه القيمة السنية للمدونة فلا غرو أن يهتم بها المالكيون اهتماما كبيرا، فكم شارح لها ومختصر، وكم حافظ لها ومستظهر، وكثرة الجهود عليها تبين شدة ولوع المالكية بها.

ومن هذه الجهود[٣]:

أولا: المختصرات :

يمكن التمثيل للمبرزين في مقصد الاختصار بمالك الصغير . ابن أبي زيد، وعصريه البراذعي القرويين، ومعاصرهما ابن أبي زمنين الأندلسي، ولكل منهم ميزته في إعادة صياغة الكتاب

١. مختصر المدونة: لابن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ)

٢. التهذيب للبرادعي

٣.المقرب في اختصار المدونة لابن أبي زمنين (ت ٣٩٩هـ).

ثانيا: الشروح:

وفي القرن الخامس تتابعت المهمة بمزيد من الخدمة والتحسين والإضافة الكمية والنوعية، والاهتمام بشرح الكتاب، وهنا يمكن التمثيل بالفقيهين الصقليين عبد الحق وابن يونس والفقيه التونسي اللخمي، ولئن كان غرضهم الأساس الشرح والتنقيح والإضافة أيضا فقد مارسوا عملية الاختصار وإعادة الترتيب كذلك.

١. الجامع لمسائل المدونة لابن يونس الصقلي (ت٤٥١هـ)

٢. التهذيب لعبد الحق الصقلي (ت٤٦٦هـ)

٣. التبصرة للخمي (ت ٤٧٨هـ)

---

[١] مواهب الجليل: ١/٤٧.

[٢] المقدمات لابن رشد: ١/٤٤ – ٤٥. وانظر عدة البروق ص:٥٤٣.

[٣] ما نذكره هنا هو خلاصة عرض الأستاذ محمد الوثيق في الدورة التكوينية في موضوع: «المنهجية الفقهية في مؤلفات المذهب المالكي» يومي: الثلاثاء والأربعاء ٢٣ . ٢٤ جمادى الثانية ١٤٣٣هـ الموافق لـ ١٥ — ١٦ ماي ٢٠١٢م.

ثالثا: مختلفات

وفي القرن السادس تجددت العطاءات النوعية على أيدي ثلة أبرزهم ابن بشير التونسي والمازري الصقلي والقاضي عياض المغربي، وكان لكل وضع من هذه الأوضاع هدفه وميزته الخاصة، وإن اشتركوا هم أيضا في الهدف العام مع غلبة التوجه النقدي والتصحيحي على الأولين، وغلبة فك الرموز وتحقيق الروايات وتنقيح الآراء على الأخير.

١-المقدمات الممهدات لابن رشد (ت٥٢٠)

٢-التنبيه على مبادئ التوجيه لابن بشير التنوخي (ت٥٢٦هـ)

٣-التعليقة لأبي عبد الله المازري (ت٥٣٦هـ)

٤-التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة و المختلطة للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ)

رابعا: خدمات إضافية:

وقبل هؤلاء ومعهم وبعدهم بذلت جهود، ووضعت أوضاع، وألفت أنواع من التآليف متنوعة المقاصد مختلفة الأحجام.

١. تبويب السائل الكتب المختلطة: لأبي المشترى(٣٣٥هـ)

٢. المسائل الواقعة في المدونة في غير مواضعها لمحمد بن أحمد الأجول المكناسي : (حي سنة ٦٨٤هـ)

٣. تجريد المسائل الأجنبيات الواقعة في غير تراجمها من المدونة لابن عبد الرفيع التونسي (ت٧٣٣)

٤. التوسط بين مالك وابن القاسم في المسائل التي اختلفا فيها من مسائل المدونة لقاسم بن خلف الجبيري (ت٣٧١هـ)

٥. ضبط ألفاظ المدونة لعبد الحق الصقلي (٤٦٦)

خامسا: الاستقرار والتراجع

لما لاح القرن السابع الهجري بدأ الوسط العلمي يحصر جل دراساته على مصدر وحيد من كل ما سبق، وهو تهذيب البرادعي، حتى صار علما على المدونة الأم، وعليه انصبت جهود المتأخرين من الشراح، وهو محور الدرس العلمي ، ثم بدأ الكتاب يتراجع في ترتيب مصادر الفقه في التدريس والتأليف عندما أبدع الفقهاء في ظاهرة المختصرات، ليحتل الصدارة ضمنها المختصر الخليلي.

طبعات المدونة ومخطوطاتها:

أما مخطوطات المدونة فهي كثيرة، ونحيل هنا إلى ما كتبه سزكين في كتابه تاريخ التراث العربي (١٤٩/٣)[١].

وأما طباعتها فقد طبعت طبعات، وبيانها كما يلي:

١- طبعة دار السعادة

طبعت المدونة طبعة أولى سنة (١٣٢٣هـ)، على يد الحاج محمد أفندي الساسي المغربي التونسي، وعلى هوامشها بعض التقارير.

واعتمد في طباعتها على نسخة مكتوبة على رق غزال بخط مغربي واضح، كتبها عبد الملك بن مسرة بن خلف اليحصبي سنة (٤٧٦هـ).

وقد أشرف على هذه الطبعة مجموعة من العلماء، وأخرجت في ثمان مجلدات تضم ستة عشر جزءا.

٢ - طبعة المكتبة الخيرية بمصر

طبعت المدونة في هذه المطبعة سنة (١٣٢٤هـ)، بعناية عمر الخشاب، من دون ذكر النسخة المعتمدة في الطبع، يبتدئ المجلد الأول منها بكتاب تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، لجلال الدين السيوطي، ثم كتاب مناقب سيدنا الإمام مالك للشيخ الزواوي، وبهامش نسخة المدونة المقدمات الممهدات لابن رشد، وتقع هذه الطبعة في أربع مجلدات.

٣- طبعة دار صادر

هذه الطبعة مصورة عن طبعة دار السعادة تماما، في ستة مجلدات، تضم ستة عشر جزءا. ولا إشارة فيها لسنة الطبع.

٤ - طبعة دار الفكر بيروت لبنان سنة (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)

هذه الطبعة مصورة عن طبعة المكتبة الخيرية وهي في أربع مجلدات.

وهناك طبعات أخرى مصورة عنها.

٥ - طبعة المكتبة العصرية: ظهرت هذه الطبعة سنة (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، بتحقيق حمدي الدمرداش محمد، وفيها أخطاء، وتتكون هذه الطبعة من تسعة مجلدات.

وطبعت أخيرا بالإمارات العربية في اثنتي عشرة مجلدا، بإشراف على الهاشمي سنة ٢٠٠٣م.

ولها طبعات أخرى، إلا أنها في جميعها مبتورة وناقصة وغير محققة، ولا زالت المدونة تحتاج لجهد علمي يليق بمكانتها في المذهب المالكي.

---

[١] طبعة جامعة محمد بن سعود الإسلامية نشر إدارة الثقافة والنشر بالجامعة ١٤١١هـ /١٩٩١م.

عود الأراك في الاستعمال الشرعي

الدكتور: أبو أزهر بلخير هانم
أستاذ التعليم العالي بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بوجدة /المغرب

يكثر أن نقف على اسم شجر الأراك في كتب الحديث، والفقه، والآداب الشرعية، ودواوين الشعراء، ويطرد عند حُجاجنا أن يستعملوه سواكا، تأسيا بما كان يَفْعله نبينا محمد ﷺ. وقد نلاحظه عند بعض الباعَة في أسواقنا العربية والإسلامية، فنقتني منه؛ وقد يُهدى إلينا من لدن زوار الأرض المقدسة في الحجاز بعد حجهم إليها.

والحقيقة أننا لا نتصور لشجرته شكلا ولا نعرف عنها شيئا إلا ما قل عند بعض في عالمنا العربي، بله الإسلامي. فقد نكتفي ببركته التي نعتقد أنها ترقى إلى الاستعمال النبوي الشريف له سواكا. وقد يعرف طبيعة شجرته سكان بلاد الحجاز خاصة.

ولكن حين نجوس خلال تعريفات اللغويين والنباتيين له، نكتشف تضاربا وعدم اتفاق في تحديد ماهية الشجرة وثمراتها. وإذا نحن أمام أوهام من لم يرها رأي العين أنه، لاشك، اكتفى بالنقل الشفهي أو الكتابي. وحتى إنّ منهم من أوهمنا قائلا: "هو شجر معروف"[١]، غير أنه في نظرنا يظل بحاجة إلى تعريف.

فهو لايتجاوز أن يكون في عرفنا ذلك العود المنتزع من شجرته، ينتكثه المسلم[٢] ليميح به فاه[٣].

فما حقيقة هذه الشجرة؟ وكيف وجه الشرع إلى التسوك بعودها توجيها فيه لطف بالمسلمين؟

١. تعريف شجرة الأراك Savadora persica

---

(١) جمهرة اللغة لأبي بكر ابن دريد، تحقيق د. رمزي منير بلعلبكي: ٢/ ١٠٦٨، والمخصص لابن سيدة، دار الكتب العلمية: ١١/ ١٨٦، وعمدة الطبيب في معرفة النبات، لأبي الخير الإشبيلي، تحقيق محمد العربي الخطابي: ١/ ٥٣ الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط.

(٢) نكث السواك وانتكثه إذا مضغه ليلين طرفه ويتشعث السواك: المخصص: ١/ ١٩٣.

(٣) ماح فاه به: إذا استاك، المصدر السابق: ١١/ ١٩٢.

هي لا ريب سواك النبي عليه السلام، وسواك العرب أيضا[١]. وقد أطلق عليها الأطباء لفظ "شجرة الأسنان" Tooth.Brush. tree[٢].

والأراك، والأُرُك، والأرائك، مفرده: أراكة، وبها سميت المرأة[٣]. ويرام بالأراك أيضا القطعة من الأراك[٤]. ويقال: الأيك للغيضة من الأراك. "والأراك والسدر... عروة"[٥] "وربض"[٦]. ويقال لصغره: العرمض، واحدته عرمضة. وأرض أَرِكة: كثيرة الأراك[٧].

والأراكة شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الورق والأغصان، خوارة العود قصفة من الحمض (أي ما كان مالحا)؛ وقيل الحمض نفسه[٨].

جاء عن أبي حنيفة الدينوري: "الأراك له شوك قليل"[٩]. وقال: "هو أفضل ما استيك بأصله، وفروعه من الشجر، وأطيب ما رعته الماشية رائحة ولبنا، وهو ذو فروع شائكة، وثمره في عناقيد"[١٠].

وذهب أبو الخير الإشبيلي الطبيب إلى أن "غصونه: الأيك، وتتخذ منه المساويك"[١١]. وقال ابن منظور الإفريقي: "أجوده عند الناس العروق، وهي تكون واسعة محلالا"[١]. وتابع الإشبيلي القول: " وقد

---

(١) عمدة الطبيب: ١/ ٥٤، ٢/ ٧٤١، وفيه: خلاف سواك النساء الذي يقع على لحاء الجوز، الذي إذا استيك به حمر اللثة: ٢/ ٧٤٠.

(٢) القاموس الجديد للنباتات الطبية، د. سمير إسماعيل لحلو، دار المنارة: ٨٧.

(٣) المخصص: ١١/ ١٨٦،والعمدة: ١/ ٥٣، ولسان العرب، دار صادر: ١٠/ ٣٨٨.

(٤) اللسان: ١٠/ ٣٨٨.

(٥) كتاب مبادئ اللغة للإسكافي، دار الكتب العلمية: ١٨٢.

(٦) نفسه: ١٨٤.

(٧) المخصص: ١١/ ١٨٦، والعمدة: ١/ ٥٣، قال الهمداني: " وإذا اجتمع الأراك في موضع فهو الغريف. وإذا اجتمع مع غيره فأيكة": صفة جزيرة العرب للهمداني، تحقيق محمد بن عبد الله النجدي: ١٥٦.

(٨) اللسان: ١١/ ٣٨٨، وتاج العروس للزبيدي، طبعة مصر: ٢/ ٥٠٠، وتنقيح الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار العشاب المالقي، تحقيق محمد العربي الخطابي: ١٥، والعمدة: ١/ ٥٣، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار العلم للملايين: ٧/ ٨٤.

(٩) المخصص: ١١/ ١٩٣، والعمدة: ١/ ٥٣، (عن أبي حنيفة الدينوري: ٢-١٠)، وقال المطرزي: "هو من عظام شجر الشوك": جواد علي، دار العلم للملايين: ٢٤.

(١٠) المخصص: ١١/ ١٩٣، وتنقيح الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار: تحقيق محمد العربي الخطابي. دار الغرب الإسلامي١٥، والعمدة: ١/ ٥٣، واللسان: ١٠/ ٣٨٨، وكشف الرموز لابن حمدوش الجزائري: ٢٠.

(١١) العمدة: ١/ ٥٣، وينظر كشف الرموز: ٢٠.

كثر السؤال عنه [أي على عهده]، فصح أنه ورق يشبه ورق الرند إلا أنها أصغر وأقل عرضا وألين، وأصغر أيضا من ورق المرو(٢)، أخضر إلى الدهمة عسر الفرك، يعلو نحو القامة وأكثر. لون خشبه لون ورقه، وعوده خوار، في خارجه ملاسة، ملمع بحمرة، يأخذ شجره إلى التدويح وأكثر، وفي طعم الورق قبض يسير وتاهة، وشيء من بروقية... شوكه إنما هو حدة أطراف الورق صارت كأنها شوك"(٣).

غير أنه وقع لأبي الخير الإشبيلي، كما سيتضح شبه وهْم ولَبس، وذلك حين تابع معرفا هذا الضرب من الشجر، بحيث زعم أنه "أنواع مثل أنواع الزيتون وغيره. فمنه ما يسمى المرد، ومنه ما يسمى الكباث، ومنه ما يسمى البرير – وهو البرم-، وآخر الهدال"(٤)، وكأنه لم يقرّ أن البرير والكباث والمرد ثمرات الأراك. فقد اعتقد أن هذه الثمرات الثلاث أشجار بأعيانها. ذلك بأنه جعل الكباث أراكاً أيضا "إذا كان ضخما، فإن كان فجا، فهو البرير"(٥)، فلم يلتفت إلى أنه كان بصدد تحديد الثمرة وتعريفها، كما احتمل أن "الخبط نوع من الأراك"(٦) في اعتقاد بعض. وقال: "وليس به"(٧). ونفى ادعاء بعض آخر من الناس ممن ظنوا أن يكون "الزرنب"(٨) هو الأراك أيضا.

ووقع في ما يشبه التناقض كذلك حين عرف "المرد" مُقرا أنه "ثمر الأراك ما دام فجّا، فإذا نضج فهو الكَباث"(٩).وهذا الأمر يجعلنا نجزم ما ذهبنا إليه آنفا أن المجتمع العربي والإسلامي في جميع الأحقاب لم يكن يعرف شجر الأراك معرفة المعاينة واليقين. وقد قيل: "لا حمى في الأراك"(١).

---

(١) اللسان: ١٠/ ٣٨٨.

(٢) المرو: ساقه خشبية وعروقه متقاربة، ويتفرع ورقه ذو الرائحة الطيبة قليلا على الساق، وطوله يزيد على الشبر من الأرض، وهو في والواقع سبعة أصناف. أجوده ما وصفنا، وهو المرماحوز: انظر: تنقيح الجامع: ٣٤٢، والمعتمد في الأدوية المفردة للتركماني، تصحيح وفهرسة ذ. محمد السقا: ٤٩٠.

(٣) العمدة: ١/ ٥٣.

(٤) العمدة: ١/ ٥٣عن كتاب النبات والشجر لأبي حنيفة الدينوري: ٢-١٠ وقد ذكر أحمد الصباحي عوض الله أن "الهدال نبات طفيلي طبي يعيش على أغصان كثيرة من الأشجار المثمرة أو الحرجية، ويسمى: دبق وعو، عشب دائم الخضرة، وأوراقه ضيقة وطويلة، وله ثمار كروية صغيرة بيضاء وصفراء" العلاج بالأعشاب والنباتات الشافية، دار إقرأ: ٢٤٨- ٢٤٩.

(٥) عمدة الطبيب: ١/ ٣٩٧.

(٦) نفسه: ١/٢٥٨.

(٧) نفسه: ١/ ٣٣٥

(٨) نفسه: ١/ ٣٥.

(٩) نفسه: ١/ ٤٧٨، وينظر تعريف الملاح فيه: ١/ ١٤٢، ٢٢٧، ٢٣٠، ٤٣٩.

وشبيه بهذا الالتباس وقع فيه العشاب المالقي ابن البيطار حين هم ببسط تعريف للأراك وثماره[٢]. وكأنه وقع بينهما توارد على التعريف المضطرب.

وإذا كان العشاب والطبيب يهوي هُويَّ المرتبِك في ذلك، فيعرف بعضَه ويكون لبعضه من الجاهلين، فما بالك بعامة الناس!؟

أما موطن نمو هذا الشجر، فيغلب على الاعتقاد أنه هو بلاد الحجاز بالجزيرة العربية[٣]، وإن كان قد رد الإشبيلي مزاعم بعض أن نوعا آخر منه غير عربي ينمو ببلاد الأندلس[٤]. وفي الآن ذاته ادعى أن ضروبا منه توجد بالأندلس وقف عليها، وهي غير ذات شوك[٥].

ولعل الأراك أكثر ما يترعرع نباته في بطون الأودية، والخنادق الرطبة بالجبال وغيرها[٦]، إلا أن نباته يقل بالجبال[٧]. ومثلما أنه ينبت بالحجاز، فقد ينبت في اليمن، على رأي الهَمْداني[٨]، لأن البيئة الطبيعية ربما ناسبته وتيسرت عملية النقل.

٢. ثمرات شجرة الأراك:

كاد جل علماء اللغة المهتمين بالمجال النباتي، وإلى جانبهم العلماء الذين تخصصوا في هذا العلم يُجمعون أن شجرة الأراك تُنتج ثلاث ثمرات متلاحقة في أطوار نضجها الزماني. هي على التوالي: **البَرير، والكباث، والمَرْدُ** [٩].

---

(١) المغرب: ٢٤.

(٢) تنقيح الجامع: ١٥، ٤٤، ٦٣، ٣٠٢، ٣٤٦.

(٣) معجم التداوي بالأعشاب والنباتات الطبية، لابن قيم الجوزية، دار الشهاب الجزائر: ١٠٢، وتذكرة داود الأنطاكي: ١/ ٤١ دار الفكر، وانظر جزيرة العرب: ٥٠.

(٤) العمدة: ١/ ٥٣- ٥٤.

(٥) العمدة: ١/ ٥٣- ٥٤.

(٦) نفسه: ١/ ٥٣- ٥٤.

(٧) تنقيح الجامع: ١٥.

(٨) صفة جزيرة العرب: ١٥٥، وانظر الأمالي لأبي علي القالي، دار الكتاب العربي: ١/ ١٢٥.

(٩) انظر: النبات والشجر للأصمعي (ضمن البلغة) المطبعة الكاثوليكية بيروت: ٥٥، وجمهرة اللغة: ١/ ٢٦١، والمخصص: ١١/ ١٨٦، وصفة جزيرة العرب: ٥٠، وكفاية المتحفظ لابن الأجدابي، تحقيق السائح علي حسين: ١٩٧، والفائق في غريب الحديث للزمخشري، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين: ٣/ ١٣٩ دار الكتب العلمية، وتاج العروس: ٢/ ٥٠٠، ومعجم التداوي بالأعشاب لابن قيم: ١٠٢، والطب النبوي له، المكتبة الثقافية: ٢٨٤،

"والنُّعَرُ أول ما يثمر الأراك"[١]. لذلك يقال: "قد أَنْعَر"[٢].

والبَريرُ يُجمَع على: بَرائر. وهو يمثل مرحلة ما قبل نضج الثمرة[٣]. قال الربعي: "**والبريرُ** صِغاره"[٤]. وهو أعظمُ حَبّاً من الكباث، وأصغر عنقوداً، وأكبر من الحمص قليلا، وله عَجَمة مُدورة صغيرة صلبة، يملأ عنقودُه الكفَّ[٥].

أما **الكَباثُ** فبفتح الكاف والباء الموحدة المخففة والثاء المثلثة.

وربما قيل له الكباث، لتغيُّره وتحوله إلى حال النضج. من كَبَثَ اللحمُ، إذا بات مغموما فتغير[٦]. وقال بعضٌ: البريرُ جِنسٌ، والكباث جِنس[٧].

وقال ابن سيدة: "الكباث فوق حب الكسبرة في المقدار، ضخامٌ، تشبه التين، وكلاهما — البرير والكباث- ينبت أخضرَ مُرا، ثم يحمرُّ فيحلو، وفيه حُروفَةٌ، ثم يسودُّ فيزداد حلاوة، وفيه بعض حَراوة. وليس للكباث عَجَمٌ وعُنقودُ"[٨]. علىحينَ عرَّفه ابن منظور بأنه "هو النضيج من ثمر الأراك"[٩]، وزاد ابن مفلح المقدسي: " هو حار يابس ويأكله كله الناس"[١٠].

وأما المرد، فهو الغض من ثمر الأراك[١١].

والآداب الشرعية لأبي عبد الله المقدسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعمر القيام: ٣/ ٤١، واللسان: ٣/ ٤٠٢، وكشف الرموز: ٢٠، ١٢٢، وتنقيح الجامع: ٦٣، والتذكرة: ١/ ٧١، ونظام الغريب في اللغة لعيسى الربعي الحميري، تحقيق محمد بن علي الأكوع الخولي: ٢٤٣.

(١) المخصص: ١١/ ١٨٦.

(٢) المخصص: ١١/ ١٨٦.

(٣) النبات والشجر للأصمعي: ٥٥، واللسان: ٢/ ١٧٨.

(٤) نظام الغريب: ٢٤٣.

(٥) المخصص: ١١/ ١٨٦، وتنقيح الجامع: ١٥، (عن أبي حنيفة: ٢- ١٠)

(٦) الفائق في غريب الحديث: ٣/ ١٣٩.

(٧) المخصص: ١١/ ١٨٦.

(٨) نفسه.

(٩) اللسان: ٢/ ١٧٨.

(١٠) الآداب الشرعية: ٣/ ٤١، والطب النبوي: ٢٨٤.

(١١) جمهرة اللغة: ٢/ ٦٣٩، واللسان: ٣/ ٤٠٢.

وحاول ابن سيدة عودا على بدء، أن يؤكد أن "المرد والبرير واحد"[١]. والمرد أشد رطوبة ولينا [من الكباث]، وإذا هو يذهب مذهب التوفيق في تعريفه قائلا: "وقيل: المرد الغض منه، والكباث المدرك، والبرير يجمعهما"[٢].

من هنا نفهم الاضطراب الذي وقع في تقديم تعريف الاراك وأَثْمُرِه وما شاب ذلك من وَهْم وإيهام.

٣. فوائد الأراك الطبية ومزاياه الشرعية:

أما فوائده فلعلها من العِظَم بحيث يجوز أن نحملها في أنه من الشجر الذي يُستاك بعيدانه شأن الإسحِل والبَشامِ وغيرِهما[٣]، إلى جانب كونه مادة غذائية وطبية.يرى داود الأنطاكي أن دلك الأسنان بعود الأراك يقوي اللِّثَة ويُصلحها[٤]. وقد سمي خشبه: مسواك النبي عليه السلام[٥]. وقديما قالوا: "أَفديك من مُستاكةٍ بعود أراكة"[٦].

وتحقق أن ثمراته تَصلحُ حالُ الدوابِّ والإنسانِ عليها وتطيب ألبان الإبل الآركة. ومن ثم، فقد باعه الناس كما يبيعون العنب[٧]. أورد ابن منظور في اللسان من حديث الزهري عن بني إسرائيل قوله: "وعنبُهم الأراك"[٨].

والكباث "يقوي المعدة [أكلاً وطبيخاً] ويجيد الهضم، ويَجلو البَلغَمَ[٩]، وينفع من أوجاع الظهر وكثيرٍ من الأدواء، ويمسك الطبيعة، ويدر البول، وينقي المثانة. وإذا صنع من قضبانه خلخالا للعضد، فإنه مانع من السحر[١٠]. كذا وصفه ابن المقدسي انطلاقا من مجال تجربته.

---

[١] المخصص: ١١/ ١٨٧.

[٢] نفسه: ١١/ ١٨٦.

[٣] كفاية المتحفظ: ١٩٧، وذكر البشام سواكا في كتاب: اشتقاق الاسماء للأصمعي، تحقيق د. رمضان عبد التواب ود. صلاح الدين الهادي: ٢٢٢، وفي المبهج لابن جني: ٨٠.

[٤] تذكرة الأنطاكي: ١/ ٤١.

[٥] عمدة الطبيب: ١/ ٥٤.

[٦] أساس البلاغة للزمخشري، دار صادر: ١٤.

[٧] تنقيح الجامع: ١٥.

[٨] اللسان: ١٠/ ٣٨٨.

[٩] البلغم: أحد أمشاج البدن: جمهرة اللغة: ٢/ ١١٢٧.

[١٠] الآداب الشرعية: ٣/ ٤١، وانظر معجم التداوي بالأعشاب: ١٠٢.

وقال ابن حمدوش الجزائري: "هو العود الذي يستاك به الناس، أكثره عند الوضوء... وورد عند الاستياك به عشر خصال... محلل، مقطع؛ ويقطع البلغم والرطوبة اللزجة، وإذا غلي في الزيت سكن الأوجاع طلاء، ولا يقوم مقام حده في تقوية المعدة وفتح الشهية شيء؛ والشربة من أصله إلى نصف رطل، ومن حبه إلى ثلاثة، وبدله في الجلاء "الديك برديك"، وفي غير ذلك الصندل. تنبيه: "الديك برديك"، معناه دواء الأسنان...، يصلح الفم وقروحه..." [١]. وهو "منافعه وما يطيب النكهة، ويمنع ارتقاء البَخَر [النكهة المنتنة] مذكور في باب السواك من الفقه[٢].

وصدق رسول الله ﷺ في حديث جابر ﷺ الذي قال: "كنا مع النبي ﷺ بمر الظهران نجني الكباث، فقال: (عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه)، فقيل: أكنت ترعى الغنم؟ قال: (نعم، وهل نبي إلا رعاها)" [٣].

قال علي ﷺ: "ثلاثة يزدن في الحفظ، ويذهبن البلغم: السواك، والصوم، وقراءة القرآن"[٤].

وقد أثبتت الدراسات الطبية أن العناية بصيانة الأسنان هي عناية بجملة من الأجهزة، كالجهاز الهضمي والتنفسي والعصبي. ومن عجب المعجزات النبوية أن ينصح النبي عليه السلام بالسواك، ويكون له ملازما في سنته الفعلية وسيرته. روت عائشة رضي الله عنها أنه قال عن السواك: (مطهرة للفم مرضاة

---

[١] كشف الرموز: ٢٠.

[٢] الآداب الشرعية: ٢/ ٣٧٠.

[٣] صحيح البخاري، مراجعة وضبط وفهرسة الشيخ محمد علي القطب والشيخ هشام البخاري، كتاب الأنبياء، باب: يعكفون على أصنام لهم: ٢/ ١٠٥٦- ١٠٥٧، ح:٣٤٠٦، وفي كتاب الأطعمة، باب الكباث: ٤/ ١٧٥٢، ح: ٥٤٥٣، وصحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الأشربة، باب: فضيلة الأسود من الكباث: ٣/ ١٦٢١، ح: ٢٠٥٠، والفائق في غريب الحديث للزمخشري، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين: ٣/ ١٣٩، والأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي، تحقيق العلامة الشيخ إبراهيم اليعقوبي، باب: في أكله التمر والفاكهة: ٢/ ٦٤٠، ح: ٩٩١، والآداب الشرعية: ٣/ ٤١. وهو في بعضها بلفظ: "نجتني".

[٤] انظر إحياء علوم الدين للغزالي: دار الفكر (في فضل القرآن): ١/ ٣٢٣، وفي مقامات السيوطي، تحقيق د. عبد الغفار البنداري، ومحمد السعيد زغلول، قال: "وفي حديث آخر رويناه في الصحاح: (أربع من سنن المرسلين: السواك، والتعطر، والحناء، والنكاح)".

للرب) [١]، وتجاوز به آداب الفطرة حتى قال: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء) [٢] رأفة بحال من لا يتيسر له ذلك.

ومن قوة اهتمامه بالسواك وفوائده في السفر والحضر، ما جاء في رواية عائشة رضي الله عنها حين قالت: "كنت أزود رسول الله ﷺ في مغزاة له، أزوده دهنا، ومشطا، ومرآة، ومقصين، ومكحلة، وسواكا"[٣]. وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: "كان لرسول الله ﷺ إناء من الليل يعرُض عليه سواكه، فإذا قام من الليل خلا واستنجى، واستاك، ثم يطلب الطيب في جميع رباع نسائه"[٤].

وعنه أيضا قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل، وُضع له طهوره وسواكه ومشطه، فإذا أهبه الله من الليل [أي جعله يهب] وضع له طهوره، وسواكه، ومشطه، فإذا أهبه الله من الليل استاك وتوضأ وامتشط"[٥].

والرسول محمد ﷺ هو معلمنا مبادئ الطهارة للوضوء، وللصلاة وقراءة القرآن الكريم.

وبحكم أن كلام الله تعالى يمر عبر الفم، فقد كان عليه السلام حريصا على أن يكون الفم طاهرا نظيفا، تأدبا مع كلام الله سبحانه، وكأنه كان يؤثر فعله قاصدا به التشريع لنا نحن مسلمي الأزمان، إلى قيام الساعة، من سُنَّة وندب وغيرهما؛ لأنه عليه السلام كان طاهر الفم، بعبير وجسد يتضوعان طيبا. فكأنه إنما ندب لنا ذلك للتشريع. ورحم الله أبا نعيم حين أورد عن علي ﷺ قوله عن رسول الله ﷺ: (إن أفواهكم طُرقُ القرآن فطيّبوها بالسواك) [٦].

وتأمل فعله عليه السلام فيما يلي:

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس: ٢/ ٥٧٤،ح: ١٩٣٣.

[٢] المصدر السابق، وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب السواك: ١/ ٢٢٠، ح: ٢٥٢.

[٣] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لابن حجر، دار الكتاب، عن عائشة رضي الله عنها من طريقين: ٥/ ١٧١، وهو في الأنوار في شمائل النبي المختار: ٢/ ٦٨٦.

[٤] المصدر السابق الثاني: ٢/ ٦٨٥- ٦٨٦، وانظر صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل: ١/ ٥٢٧، رقم: ١٨٣.

[٥] المصدر السابق الثاني: ٢/ ٦٨٥- ٦٨٦، وانظر صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل: ١/ ٥٢٧، رقم: ١٨٣.

[٦] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم، مكتبة الخانجي، مطبعة السعادة: ٤/ ٢٩٦.

جاء عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه رقد عند رسول الله ﷺ، فرآه استيقظ، فتسوك، ثم توضأ وهو يقول: ﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ [١] حتى ختم السورة، ثم قام فصلى ركعتين؛ فأطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف فنام حتى نفخ، ثم فعل ذلك ثلاث مرات، ست ركعات، كل ذلك يستاك ثم يتوضأ، ثم يقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث ركعات، ثم أتاه المؤذن، فخرج إلى الصلاة وهو يقول: "(اللهم اجعل في بصري نورا وفي سمعي نورا، وفي لساني نورا، ومن تحتي نورا، اللهم أعطني نورا)" [٢].

وعن علي ﷺ، مرفوعا، أنه أمر بالسواك وقال: "قال رسول الله ﷺ: (إن العبد إذا تسوك، ثم قام يصلي، قام الملك خلفه، فيستمع قراءته، فيدنو منه حتى يضع فاه على فيه، فما يخرج من فيه شيء من القرآن إلا صار في جوف الملك، فطهروا أفواهكم للقرآن)" [٣]. – وفي رواية أخرى قال: (فطيبوا ما هناك) [٤].

وقد استاك عليه السلام وهو صائم أيضا. ففي محمد بن الصباح عن عبيد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال: "رأيت الرسول ﷺ يستاك وهو صائم ما لا أُحصي أو أَعُدّ"[٥].

وتأسيا بهذه السنة المطهرة فقد نكون من السباقين إلى أسباب الحضارة التي ما عرف منها غيرنا ما للسواك من قيمة صحية وتطهيرية إلا في الحقب المتأخرة، بعد إذ تطور البحث في مَهَامِهِ المجالات الطبية والصيدلانية. وهل كان للعملاق والقزم أن يستويا.

---

[١] سورة آل عمران: ١٩٠.

[٢] الأنوار في شمائل النبي المختار: ٢/ ٤١٥، وقد أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب: الدعاء إذا انتبه بالليل: ٤/ ١٩٨٧- ١٩٨٨، ح: ٦٣١٦، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه: ١/ ٥٢٥- ٥٢٦، ح: ٧٦٣- ٧٧١.

[٣] الترغيب والترهيب للمنذري، تحقيق ذ. مصطفى محمد عمارة، كتاب الطهارة، باب: الترغيب في السواك: ١/ ١٦٧، وهو في كتاب: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للحافظ أبي الحسن البقاعي الشافعي، تحقيق د. عبد السميع محمد أحمد حسنين: ١/ ٢٤٦.

[٤] مصاعد النظر: ١/ ٢٤٦- ٢٤٧، عن عبد الرزاق الصنعاني في المصنف، ح: ٤١٨٤.

[٥] صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب: السواك الرطب واليابس للصائم: ٢/ ٥٧٤، ح: ١٩٣٣، وهو في سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، كتاب الصوم، باب: السواك للصائم:٢/ ٣٠٧.

مفهوم مقاصد الشريعة الإسلامية وتاريخها

د.أبو عياض عبد القادر أحنوت
أستاذ بالكلية المتعددة التخصصات بالناظور- جامعة محمد الأول/ المغرب

الحمد لله وحده.. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. وبعد:

فهذه نبذة مختصرة عن المحطات التاريخية التي مر بها علم مقاصد الشريعة وأهم المؤلفات فيه، صدّرتها بتحديد دلالة المصطلح قديما وحديثا، لعل ذلك يحقق غرض القاصد إلى معرفة تاريخ التصنيف في علم المقاصد، وهو أمر لا تخفى جدواه على الباحثين والمشتغلين بالموضوع.

أولا: مفهوم المقاصد في اصطلاح الأصوليين.

إن المتتبع لكتابات الأقدمين من علماء الأصول، لا سيما أولئك الذين يرجع إليهم الفضل في التأسيس لعلم المقاصد، يلحظ أن المصطلح لم يحظ لديهم بتعريف دقيق جامع مانع مطّرد ومنعكس[(١)]، وإنما لخصوا المقاصد في: «جلب المصالح ودرء المفاسد»، وتدل على هذا عباراتهم[(٢)].

---

(١) أقصد تعريف المقاصد حدّاً وليس تطبيقا، وإلا فإن القدامى عرفوا المقاصد تعريفا أوسع وأشمل بتحديد قواعدها وذكر طرقها ومجالات تفعيلها. انظر ما أورده الدكتور عبد السلام الرفعي بهذا الخصوص: "فقه المقاصد وأثره في الفكر النوازلي" ص: ٢٠-٢٥، مطبعة أفريقيا الشرق ٢٠٠٤ المغرب.

(٢) ومن هذه العبارات على سبيل التمثيل لا الحصر: قول الغزالي: "فرعاية المقاصد عبارة حاوية للإبقاء ودفع القواطع وللتحصيل على سبيل الابتداء". (شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، ط١/١٩٧١م، تحقيق حمد الكبيسي، مطبعة الإرشاد بغداد: ١٥٩). ويقصد بالتحصيل جلب المنفعة، وبالإبقاء دفع المضرة... ثم العز بن عبد السلام حيث يقول: "ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة لعلمنا أن الله أمر بكل خير دقه وجله وزجر عن كل شر دقه وجله، فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح". (قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ط١، ١٤٢٠/١٩٩٩، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٢٤/٢)... وأيضا القرافي في قوله: "موارد الأحكام على قسمين: مقاصد وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد، ووسائل وهي الطرق المفضية إليها". (الفروق، طبعة دار المعرفة بيروت، بدون تاريخ: ٣٢/٢). وتضمن المقاصد للمصالح يقتضي استجلابها وتحصيلها، وتضمنها للمفاسد يستوجب دفعها وتقليلها... وعند الشاطبي: "إن الأحكام الشرعية إنما شرعت لجلب المصالح أو درء المفاسد

لماذا لم يعرف القدامى مصطلح المقاصد؟

لعل الأسباب تكمن فيما يأتي:

١- إن الكتابات الأولى في المقاصد اهتمت بالجوانب العملية التطبيقية من خلال الكشف والتعرية عن المقاصد الجزئية لمسمى الشعائر الدينية دون أن تأخذ طابع التأصيل والتقعيد، اللهم إلا إشارات وردت مبثوثة في كتب الأصول في باب القياس والاستدلال.

٢- إن المصطلحات المرادفة للمقاصد والتي استعملت في معناها مثل الحِكم والأسرار والمعاني والأهداف والغايات والمصالح والمطالب والأوصاف والمحاسن والعلل والأغراض... كان لها من الشيوع والانتشار والتداول مالا يُحتاج معه إلى إفراد مصطلح المقاصد بحدٍّ خاص.

٣- إن الذين كتبوا في المقاصد من القدامى كالغزالي والشاطبي دونوا مؤلفاتهم للمهتمين والمتخصصين، وهؤلاء لا حاجة لأن تعرّف لهم المقاصد لوضوح المعنى، فالغزالي نبّه صراحة وهو يكتب في القياس والتعليل أنه يخاطب طبقة القائسين وهم علماء الدين[1]، وهو ما نبّه إليه الشاطبي أيضا بقوله: «ولا يسمح للناظر في هذا الكتاب أن ينظر فيه نظر مفيد أو مستفيد، حتى يكون ريان من علم الشريعة أصولها وفروعها، منقولها ومعقولها، غير مخلد إلى التقليد والتعصب للمذهب»[2].

أما المعاصرون فقد اختلفت تعريفاتهم لمسمى المقاصد اختلافاً لفظيا، وقد استخلصت من عباراتهم تعريفا أحسبه جامعا لمعنى المقاصد كالآتي:

التعريف المختار:

المقاصد هي: "**الأسرار والمعاني والحِكم المرعيّة في جميع جزئيات الشريعة وكلياتها رحمة بالعباد وتحقيقا لمصالحهم الشرعية في المعاش والمعاد**".

شرح التعريف:

«**الأسرار والمعاني والحِكم**»، هذه الألفاظ وغيرها استعملت برمتها في معنى المقاصد عند العلماء

وهي مسبباتها قطعاً".(الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، ١/١٩٥)... ونحو هذا كثير في كتاباتهم لا سيما الأصولية.

(١) شفاء الغليل، ص: ٣٥٣.

(٢) الموافقات: ١/٦١.

قديما وحديثا[(١)]، ولا يراد بذكرها مجتمعة هنا تأسيس كل لفظة لمعنى معين.

والتعبر بلفظ: «**المرعية في جميع جزئيات الشريعة وكلياتها**»، أي التي راعاها الشارع الحكيم وأرادها من وضع الشريعة جملة: مثل العدل والإحسان[(٢)]، والمساواة والتيسير ورفع الحرج، وحفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه[(٣)]، وإخراج العبد عن داعية هواه ليكون عبداً لله اختيارا كما هو عبد لله اضطراراً[(٤)]... ومن وضعها تفصيلا عند كل حكم من أحكامها مثل عقد النكاح المقصود به التساكن وإقامة نظام المنزل والعائلة، والطلاق المقصود به دفع الضرر المستدام، والرهن المقصود به توثيق الديون[(٥)]، وغيرها من علل الأحكام ومطالبها.

والمراد بلفظ: «**رحمة بالعباد**»، أن الشارع سبحانه، وهو الرحمن الرحيم، قصد بإنزال الكتب وإرسال الرسل إلحاق الرحمة بالعباد، قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** [الأنبياء: ١٠٦]. وهذه غاية إجمالية وشمولية تنضوي تحتها كل المعاني والحِكم سواء أكانت عامة في الشريعة أم خاصة ببعض أبوابها أم جزئية في كل حكم من أحكامها.

وأما «**تحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد**»، فدلّ عليه الاستقراء[(٦)]، والتعبير «**بالمصالح الشرعية**» تحرّزاً مما قد يتوهمه الناس مصلحة، وهو في نظر الشرع ليس كذلك.

---

(١) انظر: "نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي" للدكتور أحمد الريسوني، ط١، ١٤١١/١٩٩١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص: ٨. "الاجتهاد المقاصدي: حجيته، ضوابطه، مجالاته" لنور الدين الخادمي، كتاب الأمة، العددان ٦٥-٦٦، ط١، ١٩٩٨، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر: ٤٨/١. "فقه المقاصد وأثره في الفكر النوازلي" لعبد السلام الرفعي، ص: ٤٩، فقد تحدثوا عن المصطلحات المرادفة لمعنى المقاصد في استعمالات الأصوليين قديما بما لا يقتضي إعادة تكراره.

(٢) قواعد الأحكام: ١٢٤/٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، ط٢/١٤١٤هـ-١٩٩٣م، دار الكتب العلمية:٣٧٣/٣.

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور، ص: ٦٣. الشركة التونسية للتوزيع.

(٤) الموافقات: ١٦٨/٢.

(٥) مقاصد الشريعة لابن عاشور، ص: ١٤٦.

(٦) الموافقات: ٧/٢.

ثانيا: تاريخ التصنيف في علم المقاصد وأهم المؤلفات فيه.

إن الكلام عن حركة التصنيف في المقاصد يستوجب التتبع والاستقراء التام لجميع ما كتبه العلماء قديما وحديثا مما هو مطبوع متداول، ومما لم تصل إليه يد المحققين بعد، وهذا لا يتأتى لأحد لا سيما وأن الكثير من المؤلفات هي في حكم الضياع، أو على الأقل حكم التاريخ بضياعها ولم تصل إلينا إلا الأسماء والعناوين[١]، لذا سأقتصر على ذكر ما توصلت إليه في هذا الباب بإيجاز واختصار شديدين.

والقول في ذلك والله المستعان أن حركة التدوين والتأليف المقاصدي مرت بثلاث محطات تاريخية أسجلها كالآتي:

المحطة الأولى: وتمتد قبل إمام الحرمين الجويني، وتعنى مؤلفات هذه المرحلة بالجوانب العملية التطبيقية للمقاصد الشرعية بعيداً عن تقرير كليات هذا العلم وقواعده، بدليل ظهور بعض الكتابات التي تميزت بسلوك منهج الكشف والتعرية عن المقاصد الخاصة والجزئية لبعض أحكام العبادات، مثل: «الصلاة ومقاصدها»[٢]، و«الحج وأسراره»، و«علل العبودية»[٣]، للحكيم أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي (ت ٢٨٥هـ).

ثم «محاسن الشريعة»[٤]، لأبي بكر القفال الشاشي الكبير (ت٣٦٥هـ)، وهو كتاب يعنى بالإفصاح عن حِكم الشريعة وإبراز محاسنها في مسمى العبادات[٥].

---

[١] انظر بعض المحاولات في التأريخ لعلم المقاصد بعد أن كان له حضور قوي في الكتاب والسنة وعمل الصحابة والأئمة المجتهدين: الريسوني: "نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي"، ص: ٢٣. محمد سعيد اليوبي: "مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية"، ط١، ١٤١٨/١٩٩٨، دار الهجرة، المملكة العربية السعودية، ص: ٣٩. حمادي العبيدي: "الشاطبي ومقاصد الشريعة"، ط ١، ١٩٩٢، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي بطرابلس، ص: ١٣٤.

[٢] مطبوع بتحقيق حسني نصر زيدان.

[٣] اختلف في تسميته بين "العلل" و"علل الشرائع" و"علل العبودية" ونشرته كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بعنوان "كتاب إثبات العلل" بتحقيق خالد زهري.

[٤] ذكره ابن القيم في "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة"، تحقيق سيد إبراهيم وعلي محمد، ط ٣، ١٤١٨-١٩٩٧، دار الحديث القاهرة: ٣٩٤/٢.

[٥] "القبس في شرح موطأ مالك بن أنس" لأبي بكر بن العربي، تحقيق عبد الله ولد كريم، ط ١، ١٩٩٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ٨٠٢/٢.

ولأبي الحسن العامري (ت٣٨١هـ) كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام»، خصص فصله السادس لإثبات حِكم العبادات وتميزها على نظيراتها في الديانات الأخرى[١]

ثم «الأحكام والعلل»[٢]، للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) الذي يعنى كما يبدو من تسميته بعلل الأحكام الشرعية ومقاصدها...

المحطة الثانية: ويمكن أن نصطلح عليها، «مرحلة التقعيد المقاصدي في الكتابات الأصولية»، وتبتدئ مع إمام الحرمين الجويني الشافعي (ت٤٧٨هـ) الذي يعتبر من الأوائل الذين بدأت تظهر في كتاباتهم بعض قواعد المقاصد، وقد أجمع العارفون بهذا الشأن أو كادوا يجمعون على أنه حامل مشعل فن المقاصد وصاحب الريادة فيه[٣]، وإن جاء فكره المقاصدي مبثوثا في كتبه لا سيما «البرهان»...

ويعد الجويني رحمه الله أول من نبه على التقسيم الثلاثي للمقاصد، فقد قسم أصول الشريعة في باب تقاسيم العلل والأصول من كتاب القياس إلى خمسة أقسام[٤]:

١- ما يعقل معناه وهو أصل ويؤول المعنى المعقول منه إلى أمر ضروري لا بد منه، وهذا بمنزلة قضاء الشرع بوجوب القصاص في أوانه، فهو معلل بتحقيق العصمة في الدماء المحقونة والزجر عن التهجم عليها...

٢- ما يتعلق بالحاجة العامة ولا ينتهي إلى حد الضرورة، ومثّل له بتصحيح الإجارة بين الناس...

٣- ما لا يتعلق بضرورة خاصة ولا حاجة عامة ولكن يلوح فيه غرض في جلب مكرمة أو نفي نقيض عنها، ومثل لهذا بالطهارات...

٤- ما لا يستند إلى حاجة ولا إلى ضرورة، وتحصيل المقصود فيه مندوب إليه تصريحا ابتداءً، وهذا القسم في نظر الجويني مثل الضرب الثالث غير أنه ينحصر في المندوبات...

٥- ما لا يلوح فيه للمستنبط معنىً أصلا ولا مقتضى من ضرورة أو حاجة أو استحثاث على مكرمة، قال: «وهذا يندر تصويره جدّاً، فإنه إن امتنع استنباط معنى جزئي فلا يمتنع تخيله كليّاً»، ومثل

---

[١] انظر ص: ١٣٩.

[٢] ذكره القاضي عياض في "ترتيب المدارك": ٦٩/٧، طبعة وزارة الأوقاف.

[٣] أقصد من جهة التقعيد والتأصيل.

[٤] البرهان في أصول الفقه، تحقيق عبد العظيم محمود ديب، ط ٣، ١٩٩٢، دار الوفاء، المنصورة، ٦٠٢/٢-٦٠٤.

لهذا القسم «بالعبادات البدنية المحضة، فإنه لا يتعلق بها أغراض دفعية ولا نفعية[١]. ولكن لا يبعد أن يقال: تواصل الوظائف يديم مرونة العباد[٢] على حكم الانقياد وتجديد العهد بذكر الله تعالى وينهي عن الفحشاء والمنكر وهذا يقع على الجملة».

والمتتبع "للبرهان" يجده طافحاً بالإشارات المقاصدية التي كان لها الأثر الكبير في الفكر المقاصدي لدى العلماء بعده، وخاصة تلميذه الغزالي (ت٥٠٥هـ) الذي يعد كتابه "شفاء الغليل في بيان الشَّبه والمخيّل ومسالك التعليل" قبلة المهتمين بالمقاصد قديما وحديثا.

وتظهر المقاصد عند الإمام الغزالي رحمه الله فيما يأتي:

١- اعتناؤه بمسلك المناسبة من مسالك العلة الذي يقوم على اختيار الوصف الجامع بين الأصل والفرع عن طريق النظر في مدى تحقيقه لمقاصد الشريعة.

٢- اهتمامه بالتعليل وأقسامه ومسالكه وآثاره باعتباره روح المقاصد وقلبه النابض.

٣- تقسيمه المقاصد، بعد تنقيح وتهذيب تقسيم شيخه الجويني، إلى الضروريات و الحاجيات والتحسينيات، والذي أصبح هو المعتمد في كتابات الأصوليين بعده مثل الرازي والآمدي والزركشي والشوكاني وغيرهم.

٤- تفصيله في مسمى المصالح المرسلة وضوابطها والتمثيل لها، ومعلوم ما للمصلحة من علاقة جدلية معللة بمسمى المقاصد...

وقد جاءت هذه القضايا المقاصدية أكثر تحريرا وتدقيقا ونضجا في كتابه "المستصفى".

ثم جاء بعد الجويني والغزالي «أفذاذ أحسب أن نفوسهم جاشت بمحاولة هذا الصنيع»[٣]، مثل العز بن عبد السلام الشافعي (ت٦٦٠هـ) في كتابه: «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» الذي حاول من خلاله غير مرة وهو يتحدث عن حقيقة المصالح والمفاسد[٤]، وأقسامها[٥]، ورتبها[١]، وسبل الترجيح

---

[١] ويقصد بالدفعية درء المفسدة وبالنفعية جلب المصلحة.

[٢] أي تمرّنهم.

[٣] هذه العبارة لابن عاشور، "مقاصد الشريعة الإسلامية"، ص: ٨٨.

[٤] قواعد الأحكام: ١/١٢ وما بعدها.

[٥] نفسه: ١/٢٣ وما بعدها.

بينها [٢]، التأسيس لمقاصد الشريعة.

ولأهمية هذا الكتاب في المقاصد اختصره في كتاب سماه: «الفوائد في اختصار المقاصد». وله كتب أخرى تعنى بالمقاصد الجزئية لبعض أبواب العبادات مثل: «مقاصد الصلاة»، و«مقاصد الصوم»، و«مناسك الحج»، وهي رسالة في فضل الحج والعمرة[٣].

ثم جاء بعده تلميذه شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي المصري المالكي (ت٦٨٤هـ) بكتابه «الفروق» الذي اهتم فيه بإثراء معاني الأحكام وتحديد مقاصدها، وضبط الوسائل المفضية إلى هذه المقاصد[٤]... مما كان له الفضل في إرساء هذا العلم وترسيخ كثير من قواعده.

ويأتي بعد هؤلاء جميعاً شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحرّاني الحنبلي (ت٧٢٨هـ)، وتلميذه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن القيم (ت٧٥١هـ)، ومما يدل على اهتمامهما بالمقاصد:

١- التوسع في الحديث عن الذرائع سدا وفتحا وضوابطها، ومنع الحيل المقصود بها التوصل إلى المحظور، وبخاصة عند ابن القيم، بما لم يسبق إليه أحد قبلهما[٥]، ومعلوم ما للذرائع والحيل من علاقة بمقاصد الشريعة[٦].

٢- تقرير بعض قواعد المقاصد[٧] التي اعتبرت منارا وسبيلا هاديا إلى المنهج الأسلم والأعلم في

---

(١) نفسه: ١/٤٠ وما بعدها.

(٢) نفسه: ١/١١٥ وما بعدها.

(٣) انظر ما كتبه الدكتور محمد جمعة كردي عن مؤلفات العز بن عبد السلام الأصولية والمقاصدية في تحقيقه لكتاب "فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام"، ص: ١٤٣-١٤٤.

(٤) انظر مثلا: ج٢/٣٢- ٣٥- ١٤٢- ١٨٨- ٢٢٩. ثم ج٣/٢٦٦. ثم ج٤/١٣-١٨٩-١٩٣...

(٥) انظر: "إعلام الموقعين":ج٣/١٢٦ إلى ٣١٣، ثم ج٤/٢١ وما بعدها. "إغاثة اللهفان": ج١/٣٧٣ إلى آخر الجزء، ثم ج٢/١ إلى ١٢٩. ولابن تيمية كتاب في إبطال الحيل وسد الذرائع قال رحمه الله: «وقد بسطنا الكلام على قاعدة "إبطال الحيل وسد الذرائع" في كتاب كبير مفرد وقررنا فيه مذهب أهل المدينة بالكتاب والسنة وإجماع الأولين من المهاجرين والأنصار». مجموع الفتاوى: ١٩١/٢٠.

(٦) فقد بنى الشاطبي قاعدة الذرائع والحيل على أصل اعتبار المآل بعدما أثبت مقاصدية هذا الأصل باستقراء الأدلة الشرعية، انظر: "الموافقات": ١٤٠/٤ وما بعدها.

(٧) وهذه القواعد المقاصدية مبثوثة في مؤلفاتهما يصعب استقراؤها وتتبعها في هذا المقام.

الاجتهاد لدى الفقهاء فيما بعد.

٣- الكشف عن علل الأحكام، ومقاصدها الجزئية، ومن ذلك: مقاصد الصلاة[١]، مقاصد الزكاة[٢]، مقاصد الصوم[٣]، مقاصد الحج[٤]، مقاصد الجهاد[٥]، مقاصد الولايات[٦]، مقاصد الوضوء[٧]...

المحطة الثالثة: وفيها تميز علم المقاصد عن غيره من العلوم مع الإمام الشاطبي (ت٧٩٠هـ) الذي أفرده بالتأليف وخصص الجزء الثاني من كتابه "الموافقات في أصول الشريعة" لتقرير قواعده وجمع شتاته، حيث جعل المقاصد قسمين:

أحدهما: يرجع إلى قصد الشارع.

والآخر: يرجع إلى قصد المكلف.

ثم قسّم ما يرجع إلى قصد الشارع إلى أربعة أقسام: قصد الشارع في وضع الشريعة ابتداء، وقصده في وضعها للأفهام، وقصده في وضعها للتكليف بمقتضاها، وقصده في دخول المكلف تحت حكمها[٨].

وربط المقاصد بكثير من المباحث الأصولية وخاصة مبحث الاجتهاد[٩]. وبهذا أحدث تحولا منهجيا في دراسة مقاصد الشريعة.

وبعد الشاطبي حدثت قطيعة مع الكتابة المقاصدية نتيجة الركود والجمود الذي عرفته حركة التصنيف في العلوم الإسلامية عموماً، إلى أن جاء الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، فألف كتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية" وأبدع في تصنيفه، وأضاف مباحث جديدة لها تعلق بمقاصد التشريع الخاصة بأنواع المعاملات

---

[١] انظر: "مفتاح دار السعادة": ٢/٣٥٣.
[٢] مفتاح دار السعادة: ٢/٣٥٤.
[٣] نفسه: ٢/٣٥٤.
[٤] نفسه: ٢/٣٥٥
[٥] "مجموع الفتاوى": ٢٨/٢٤٣.
[٦] نفسه: ٢٨/٤١ وما بعدها.
[٧] "إعلام الموقعين": ٢/٥٨. "مفتاح دار السعادة": ٢/٣٧٤.
[٨] "الموافقات": ٢/٣-٤.
[٩] انظر مثلا "الموافقات": ج١/١٧٨-١٩١- ٢١٣... ثم ج٤/١١٧-١٤٠ وما بعدها.

بين الناس مثل: مقاصد أحكام العائلة[١]، مقاصد التصرفات المالية[٢]، مقاصد الشارع في المعاملات المنعقدة على الأبدان[٣]، مقاصد التبرعات[٤]، مقاصد أحكام القضاء والشهادة[٥]، ومقاصد العقوبات[٦].

وألف معاصره الأستاذ علال الفاسي كتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها"، وهو قريب في منهجه إلى الأسلوب الفكري الفلسفي منه إلى الطابع العلمي والأصولي.

ثم حدثت قطيعة ثانية[٧] إلى أن طلع علينا الدكتور أحمد الريسوني بباكورة بحث في "نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي"، كان لها فضل السبق ضمن التصنيف المعاصر في هذا الفن.

وإسهاما في إغناء الصحوة المقاصدية المعاصرة ظهرت كتابات أخرى فيما بعد، أذكر جملة منها كالآتي:

١- "المقاصد العامة للشريعة الإسلامية"، ليوسف حامد العالم.

٢- "التشريع أصوله ومقاصده"، للدكتور عمر الجيدي، تحدث عن المقاصد في فصله السادس.

٣- "فلسفة مقاصد التشريع"، لخليفة بابكر الحسن.

٤- وللريسوني كذلك: "مدخل إلى مقاصد الشريعة"، ثم "الفكر المقاصدي قواعده وفوائده".

٥- "الاجتهاد المقاصدي: حجيته ، ضوابطه، مجالاته"، لنور الدين بن مختار الخادمي.

٦- وللخادمي أيضا: "أبحاث في مقاصد الشريعة: دراسة مقاصدية لبعض قضايا الاجتهاد والتجديد والمعاصرة والفكر والحضارة والثقافة والمنطق والأصول والفروع".

٧- "الشاطبي ومقاصد الشريعة"، لحمادي العبيدي.

---

[١] مقاصد الشريعة الإسلامية، ص: ١٥٥.
[٢] نفسه: ١٦٧.
[٣] نفسه: ١٨٤.
[٤] نفسه: ١٨٨.
[٥] نفسه: ١٩٣.
[٦] مقاصد الشريعة الإسلامية، ص: ٢٠٥.
[٧] إلا أنها لم تدم طويلا مثل سابقتها.

٨- "قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي:عرضا ودراسة وتحليلا"، للدكتور عبد الرحمن الكيلاني.

٩- "مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية"، للدكتور محمد سعيد بن أحمد اليوبي.

١٠- "نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور"، لإسماعيل الحسني.

١١- ولإسماعيل الحسني كذلك كتاب: "مقاصد الشريعة وأسئلة الفكر المقاصدي".

١٢- "فقه المقاصد وأثره في الفكر النوازلي"، لعبد السلام الرفعي.

١٣- "الأصول الكبرى لنظرية المقاصد"، تأليف عبد الحفيظ قطاش.

١٤- "فقه المقاصد: إناطة الأحكام الشرعية بمقاصدها"، للدكتور جاسر عودة.

١٥- "مشاهد من المقاصد" للشيخ عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بية.

١٦- "مقاصد الشريعة عند الإمام مالك: بين النظرية والتطبيق"، للدكتور محمد أحمد القياتي.

١٧- "الوعي المقاصدي: قراءة معاصرة للعمل بمقاصد الشريعة في مناحي الحياة"، للدكتور مسفر القحطاني.

١٨- "مقاصد الشريعة"، للدكتور طه جابر العلواني، تحدث فيه عن المقاصد الشرعية العليا التي ينبغي أن تحكم الاجتهاد المعاصر، وأن إغفال هذه المقاصد له أثره السلبي على العقل.

١٩- "نحو تفعيل مقاصد الشريعة"، لجمال الدين عطية، ذكر فيه المجالات التي ينبغي أن تُفعّل فيها المقاصد.

٢٠- "مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة"، للدكتور عبد المجيد النجار، عالج فيه مقاصد الشريعة برؤية مختلفة تسعى إلى أن تصبح هذه المقاصد فاعلة في ذهن الفقيه وطالب الفقه وكل مسلم يبتغي أن تكون حياته جارية وفق الشرع بصفة حية منتجة.

٢١- "حول مقاصد الشريعة الإسلامية"، لمجموعة من الباحثين، وهو عبارة عن مجموعة من البحوث ألقيت في الندوة التي انعقدت حول كتاب "الأستاذ الإمام محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية"، لسماحة الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة، تونس (٢٠٠٥)...

ملفات الأعداد القادمة :



١-جهود علماء المغرب في خدمة الفقه الإسلامي.

٢- جهود علماء الجزائر في خدمة الفقه الإسلامي.

٣- جهود علماء تونس في خدمة الفقه الإسلامي.

٤- جهود علماء السودان في خدمة الفقه الإسلامي.

٥-...



ملف العدل القادم



نرحب بأبحاثكم في هذا الموضوع عبر البريد الالكتروني للمجلة:

magalmodawana@gmail.com